الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١١٢ — ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 112.

Lundi-26-8-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

قرش	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ١١٢ «القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٥» السـنة الثالثة

فهرس العـــــدد

٢ ـ سعد باشا زغلول

بمناسبة ذكراه الثامنة



كانت رسالة سعد كما رأيت (الدفاع عن الحق) فى زمن خذل الحقَّ فانتهى فيه الحكم إلى الأثَرة، وشعب جهل الحق فجرى به الأمر على الباطل. وكانت عُدة هذا المحامى المِدْره لذلك الدفاع البلاغةَ والمنطق والقانون: فالبلاغة للجمهور، والمنطق للخصوم، والقانون للحكومة؛ ولست أرمى بذلك إلى تقسيم كلام الزعيم إلى التأثير المحض، والاقناع المطلق، والتطبيق المجرد، فان خطبتـه فى كل موضع وفى أى

موضوع لا تخلو من هذه العناصر الثلاثة ، وإنما يظهر بعضها على بعض حين يقتضى المقامَ ذلك الظهور ؛ فهو يوجه التأثير بالفكرة إلى الذهن إذا هاجم الانكار والجهل ، وبالعاطفة إلى النفس إذا عالج الخمود والغفلة ، وبالنصوص إلى الذاكرة إذا عارض القوة والسلطة . ولم ير التاريخ المصرى بل الشرق قبل سعد خطيباً بَليلَ اللسان ، ندىَّ الصوت ، طلق البديهة ، دامغ الحجة ، حافل الخاطر ، رائع البيان ، أنيق اللهجة ، حسن السمت ، يزاوج بين المنطق والشعر ، ويعاقب بين الاقناع والامتاع ، ويراوح بين الجد والهزل ، ويتصرف فى فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب ، والفيلسوفِ بدقة الفكر ، والموسيقى بجمال الايقاع ؛ وكل ذلك فى هالة من الشخصية المهيمنة الجذابة ، تساعد بلاغة اللسان والعين واليد بشعاع إلٰهى باهر ، ينفذ إلى النفوس المتكبرة فتتَّضع ، وإلى الأذهان المكابرة فتقتنع ، وإلى القلوب اللينة فتنماع

***

كان سعد رجل جلاد وجدل ؛ تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل ، وراض نفسه منذ الدراسة على أدب اللسان والقلم ، وتنفس به العمر فى ميادين الجهاد فى الحق ، فتكملت عبقريته الموهوبة بالمعرفة ، وتثقفت بالتجربة ، وتقوت بالمران ، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذى ينهض بالكلام أربع ساعات متواليات لا يتلكأ ، ولا يتلجلج ، ولا يتكثر باللغو ، ولا يستعين بالتكرار ، ولا يطرد نشاط السامع ؛ وكأنما كانت الخطابة لطول مازاولها تصدر عنه كما يصدر الفعل عن الطبع الملازم والعادة المستحكمة ؛ فالفكر عميق من غير إعنات ، والأسلوب رشيق من غير تكلف ، واللفظ متخير من غير قصد ، والمعانى متساوقة تختلف باختلاف العقول والميول والحال ، فتقع من قلوب سامعيها العشرين ألفاً موقع الأنداء من جفاف الأرض : هـذا بالصورة الآخذة ، وذاك بالفكرة النافذة ، وذلك بالحجة الوثيقة ، وأولئك جميعاً بالبيان الملهم ، والأداء العجيب !

أكثر ما فى خطب الخطباء حنجرة وإلقاء وحركة ؛ فاذا قرأت بعد ذلك ما سمعت تبينت فيه الكلام الزائف والرأى المجازف والأسلوب المشوش ؛ أما سعد فتسمعه وتقرأه فلا تجد بين الحالين إلا الفرق بين الخطيب الماثل بشخصه ، والكاتب الماثل بروحه ؛ ذلك لأنه يخطب كما يكتب ويكتب كما يخطب ، متوخياً فى الأمرين براعة التفكير ، وبلاغة الأداء ، وجمال الأخيلة ، وصحة الأقيسة ، وقوة الأدلة

***

كان سعد برد الله ثراه وخلد ذكراه يحب الكلام كما يحب العمل ، وينشط بالجلاد كما ينشط بالجدل ، ويطرب لِلفتة الذهن كما يطرب لقهر الخصومة ، ويقدس المنطق حتى ليأخذ به من نفسه لعدوه ، ويقوى بالكفاح حتى ليركبه المرض والوهن إذا ما استجمّ

دخلت ذات يوم بيت الأمة فى وفد من قومى نجدد الثقة بالرئيس حين انصدع من حوله الوفد ، وائتمرت به الحكومة ، وتخشَّنَ عليه الانجليز ، ودس له المراءون الغَدر فى الملق ، ولم يبق معه إلا اعتداده بنفسه ، واعتقاده بحقه ، وثقة الشعب الأعزل به ؛ وكان فى ذلك اليوم عليلاً لا يخرج إلى أحد ولا يدخل عليه أحد ، ولكن الوفد المسافر المشوق يأبى فى إلحاح وإصرار إلا أن يرى رئيسه وإن لم ينزل ، ويسمعه رأيه وإن لم يتكلم ؛ فنزل الزعيم النبيل مدثَّراً بلفائف المرض يتحامل على نفسه ويتهالك على مقعده ؛ وكان فناء الدار وشارع الدار وحجرات الدار قد انفجرت انفجار عرفات بالدعاء والتفدية حين لاح وجهه الشاحب من العلة

قدّم وفدنا إلى الرئيس عرائض الثقة فى غلاف حريرى جميل ، ثم تعاقبت الخطب على الأسماع ما بين سمين وهزيل ، والخطيب المعجز جالس إلى مكتبه يصغى إلى كل خطيب ويصفق لكل خطبة ، حتى انتهى القوم ووقف هو يقول كلمة الشكر ، فبدأها بصوت خافت متهافت ، ثم ما لبث أن شبا وجهه ، واستقام عوده ، وارتفع صوته ، وتنوعت لهجته بالنبرات المؤثرة ، وتحركت يده بالأشارات المبينة ، ثم تدفق تدفق السيل الهادر ساعة كاملة هتك فيها أستار الغلول والخديعة عن سياسة الحكومة والخصوم ، فما سمع الناس كاليوم خطيباً ينطق عن الوحى ، وأسلوباً يتسامى للإعجاز ، وصوتاً يمتزج رنينه الفضى بأجزاء النفس ، وخطبة لا يظفر بمثلها البيانيون نموذجاً كاملاً للفن !

تلك صورة جانبية لناحية من نواحى فن الزعيم ، جلوناها على قدر هـذه الصفحة ؛ ولعلنا نعود يوماً الى هـذا الاجمال فنفصله ، وإلى هذا التركيب فنحلله .

احمد حسن الزيات

القومية العربيـــــة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كثيراً ما يسألني الشبان الذين لم يشهدوا الثورة المصرية — لأنهم كانوا أطفالاً — « هل كانت حقيقة رائعة ؟ »

فأقول: « لقد بلغت غاية الروعة — فى حدودها. ولم يكن فى الوسع أن تكون فوق ما كانت ؛ ولكنها فشلت — مع الأسف — لأنا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين »

ذلك أنى أومن بما أسميه « القومية العربية » وأعتقد أن من خطل السياسة وضلال الرأى أن تنفرد كل واحدة من الأمم العربية بسمعها غير عابئة بشقيقاتها، أو ناظرة اليها ؛ ويحنقنى ويستفزنى أن أرى أحداً ينظر إلى مصر كأنها من أوربا وليست من الشرق. وعندى أن الجنسية الشرقية هى أساس حياتنا وتاريخنا، وأن هذه النظرة تفسد مزايانا الشرقية — إذا لم تفقدنا إياها — ولا تكسبنا مزية من مزايا الغرب ؛ والعلم ينقل، وقد نُقل من الشرق إلى الغرب، ومن اليسير أن ينقل من الغرب إلى الشرق من غير أن يحاول الشرق أن يغيّر جلده أو يخسر خصائصه

وقد اعترض علىّ شاب — ذات مرة — ونحن فى حديث كهذا، فقال: « وما الرأى فى القومية ؟ أليست حقيقة تاريخية تفرّق بين هذه الشعوب والأمم التى تريد أن تجمعها وتربطها برباط واحد ؟ »

فقلت له: « إن هذه القوميات العنيفة الضيقة الحدود، حديثة من الوجهة التاريخية، وهى — بحدتها الحاضرة — بنت العصر الحديث، أو إذا شئت، فقل انها وليدة الحرب العظمى، وإن كان صحيحاً أنها سبقت الحرب بنصف قرن تقريباً، بل إن فكرة الامبراطورية البريطانيـة نفسها ليست إلا بنت القرن العشرين. ولعل أكبر مسئول عن بث هذه الفكرة هو الشاعر كبلنج. ما علينا من هذا، ولنرجع إلى حديث الشرق: لقد كانت هناك وحدة وثقافة اسـلاميتان دان لهما الشرق، أو ما يعنينا منه، وظلت هذه الوحدة قائمة على الرغم من انحطاط الثقافة، ولم يمنعها أن تظل قائمة أنّ ثورات شبت، وحروباً استعرت، فان هذه أشبه بالفتن الداخلية والحروب الأهلية ؛ وقد كان العلماء والأدباء والفقهاء يرحلون من بلد إلى بلد، ولا يحسون أنهم تركوا أوطانهم وتغرّبوا، ولا يشـعرون أنهم اجتازوا حدوداً، وتخطوا تخوماً، تفصل بين أقطار، وتعزل أمة عن أمة. ولا يزال الحال كذلك ؛ ولو جبتم هذا الشرق لما شعرتم أنكم فى غير مصر — إلا من حيث التقدم المادى — وكانت اللغـة العربية هى اللسان الذى لا يحتاجون إلى اتخاذ غيره فى حيثما يكونون من هـذا الشرق العظيم الذى تقسمونه اليوم أمماً وشعوباً وتقولون هـذا مصرى وذاك فلسطينى أو شامى أو حجازى. وعلى أن القوميـة هى اللغة لا سواها. ولتكن طبيعة البلاد ما يشاء الله أن تكون، ولتكن الأصول البعيدة المتغلغلة فى القدم ما شاءت، فما دام أن أقواماً لهم لغة واحدة فهم شعب واحـد. ذلك أن الانسان لا يستطيع أن يفكر — إلى الآن على الأقل — إلا بالألفاظ. هى وحدها أداة التفكير، فلا سبيل اليه بدونها ؛ ومن المستحيل — الآن — أن نتمثل معنى مجرداً عن ألفاظ تعيّنه. ولكل لغة أساليبها وطرائقها، فأساليب التفكير وطريقة التصوّر خاضعة للأساليب التى يتألف على مقتضاها الكلام فى اللغات المختلفة ؛ ومن هنا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة، ويختلفون عن أبناء كل لغة أخرى ؛ وهذا فرق ما بين الانكليزى والفرنسى، وما بين الانكليزى والهندى ؛ وهذه فيما أظن، حقيقة علمية، ومتى كان الأمر كذلك فكيف نكون إلا عرباً كالعراقيين، والسوريين، والفلسطينيين، والحجازيين، واليمانين، مع اختلاف يسير تحدثه طبائع هذه البلاد ؟ »

فعاد الشاب يسألنى: « وأصلنا المصرى ؟ وتاريخ الفراعنة ومدنيتهم ؟ »

فقلت له: « أكرم بهذا من أصل ! وإنها لمدنية باهرة تلك التى كانت للفراعنة ؛ وإن العالم كله لمدين بأكثر مما يعرف لهذه الحضـارة القديمة، ولكنها بادت واندثرت، ولم يبق منها إلا الأثر المدفون فى التراب، والذى لا يمكن أن يؤثر فى حياتنا

الحاضرة إلا من طريق واحد — هو إشعارنا العزة ، وحثنا على استحقاق هذا الميراث الجليل ، كما يكون الأب كريماً فيخجل الابن أن يكون كزاً لئيماً وأن يفعل ما ينافى كرم آبائه وطيب أرومتهم ؛ ولـكن المدنية العربية — أو قل الاسلامية إذا شئت — لم تفن ، ولم تبد ، ولم تندثر ، ولم تفقد إلا القوة ومظاهر السلطان ، وهذه تكتسب وتستفاد ؛ ولـكنها فيما عدا ذلك ، بقيت حية ، وأبقى ما بقى منها لغتها بكنوزها المختلفة ، فهى — أى المدنيـة العربية — عامل مؤثر بوجوده — لا بذكراه كالعامل الفرعونى . ومن الممكن هدم هذه الحواجز المفتعلة التى يقيمها الغرب ويرفع منها سدوداً بيننا وبين اخواننا »

وكثير ممن أحدثهم هذا الحديث يقتنعون ، ولـكنهم يرون أنفسهم شباناً ، ويستهولون أن يوكل إلى أسنانهم الغضة توثيق ما أوهنه تفريط الشيوخ أو ضيق إدراكهم ، ولـكنى أنا أومن بقدرة الشباب على المعجزات ، لأن خياله أنشط ، وجرأته أعظم وعزيمته جديدة لم تنل منها الخطوب والخيبات ، وآماله فسيحة . وإذا كان الشاب لا يقدم ، فمن ذا عساه يفعل ؟؟

ولو أن هـذه القومية العربية لم تـكن إلا وهماً لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ ، لوجب أن نخلقها خلقاً ، فما للأمم الصغيرة أمل فى حياة مأمونة ، وما خير مليون من الناس مثلاً ؟ ماذا يسعهم فى دنيا تموج دولها بالخلق ، وكيف يدخل فى طوقهم أن يحموا حقيقتهم ويذودوا عن حوضهم ؟ إن أية دولة تتاح لهـا الفرصة تستطيع أن تثب عليهم وتأكلهم أكلاً بلحمهم وعظمهم . ولـكن مليون فلسطين إذا أضيف إليهم مليونا الشام وملايين مصر والعراق مثلاً يصبحون شيئاً له بأس يتقى . وهذه البلاد ما انفكت زراعية على الأكثر ، وجل اعتمادها على حاصلات الأرض ، والصناعة فيهـا ساذجة محدودة ، وضيقة النطاق ، والزراعة لا تغنى الأمم كما تغنيها الصناعة ، والمـال عصب الحياة وسر القوة ، وأخلق بهذه الأقطار العربية أن تظل صناعاتها ضئيلة ما بقيت هى مقسمة موزعة ، لأنه لا يوافق الدول الغربية التى لها فيها سلطان أو نفوذ أن تدع صناعاتها تنشط وتنهض ، ولا سبيل إلى نشاطها إلا إذا فتحت أسواق مصر ، لجاراتها الشرقيـة ، وأسواق الجارات لمصر ، ومعقول أن تشترى منا دول أوربا حاصلاتنا الزراعية أو ما يزيد على حاجتنا منها ، ولـكن صناعتنا لا يعقل أن تجد لها أسواقاً فى أوربا ، فما بها حاجة إلى ما نصنع بالغاً ما بلغ التجويد فيه ، وإنما يتسع الميدان لصناعتنا إذا وجدت سبيلها إلى الشرق ، ومثل هذا يقال عن البلاد العربية الشرقية

قد يقال ولـكن هذا ليس إلا حلماً ، فنقول نعم إنه الآن حلم ، لا أكثر ، ولعله لا يتراءى إلا لآحاد يعدون على الأصابع فى كل بلد ، وعسى أن تكون العقبات المعترضة والصعاب القائمة قد صرفت كثيرين عنه بعد أن دار زمناً فى نفوسهم ، ولـكنه ، على كونه حلماً ، ليس أعز ولا أبعد منالاً مما تحلم به أمم أخرى فى هذا العصر ؛ وبالأمم حاجة إلى الأحلام ، وإلى الالحاح على نفسها بها حتى تخلد إليها وتتعلق بها ولا تعود ترى للحياة قيمة أو معنى إذا لم تسع لتحقيقها ، وإلا فلأية غاية تسعى ؟ ؟ ماذا تطلب من الدنيا ؟ وماذا عسى أن يكون مرامها فى الحياة إذا لم تحلم بأمل ؟ أيكون كل ما تبغى أن تأكل هنيئاً ، وتشرب مريئاً ، وتنام ملء جفونها ؟؟ وهيهات أن يتيسر لها ذلك إذا هى أقصرت وكفت عن الأحلام والتأميل وما يغريان به من السعى ، وغيرنا يحلم بنا إذا كنا نحن لا نحلم بشىء ، وحقيق بنا إذا سلمنا إلى حين أن نعود فريسة لأمة من الأمم الطامعة الحالمة

والأحلام ضرورة من ضروريات الحياة ، للأفراد والجماعات ، وبغيرها يمتنع السعى وتنقطع الحوافز ، وتركد الدنيا ويأسن العيش ، ومن لا حلم له ، لا أمل له ، ولا مستقبل ، فلماذا يعيش إذن ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

مصر وقت الفتح الفاطمي

والعوامل التي مهدت لهذا الفتح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمـــة

— ٣ —

كانت الدولة الفاطمية تضطرم بهذا الروح الوثاب ، وهذه الخلال البدوية النقية حينما اعتزم المعز لدين الله فتح مصر ، وكانت هذه الروح والخلال هي دعامة الدولة الجديدة ؛ نشأت في مهدها ، كما تنشأ معظم الدول المغامرة التي تجد في قفار المغرب خير ميدان لطالعها ونشاطها . وكانت هذه الأسبارطية [١] الصارمة تطبع تصرفات الغزاة منذ البداية ؛ وبينما كان أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين وطليعة دولتهم يزحف بعصبته من البربر على بني الأغلب لينتزع ملكهم ، كان زيادة الله بن الأغلب مكباً على لهوه ومسراته [٢] ، ولم يك ثمة شك في مصير ملك يغشاه مثل هذا الانحلال في الروح وفي الخلال ؛ ولما تم الظفر لأبي عبد الله ودخل رقادة عاصمة الأغالبة ، واحتوى على تراث بني الأغلب ، عرضت عليه جواري ابن الأغلب وفيهن عدة فائقات الحسن ، فلم ينظر إلى واحدة منهن ، وأمر لهن بما يصلح شأنهن [٣] وأقام على ما كان عليه من تقشف بالغ وخشونة في المأكل والملبس ، ولم تزد اقامتـه في القصر الأنيق على اقامة القفر الساذج [٤]

ولما اعتزم المعز أن يحقق أمنية أسرته في افتتاح مصر ، استعد لذلك استعداداً عظيماً ، وحشد كل ما استطاع من جند وذخيرة ومال ، وعهد بتلك الحملة الزاخرة إلى أعظم قواده جوهر الصقلي ؛ ومع أن المعز كان قوي الأمل في التغلب على مصر ،

(١) نسبة إلى اسبارطة من حواضر اليونان القديمة ، وقد اشتهرت بنوع من التربية الخشنة الصارمة كانت تفرضه على أبنائها منذ الحداثة حتى يشبوا جنداً أقوياء يغالبون كل ضروب المشاق

(٢) اتعاظ الحنفاء ص ٣٦

(٣) « « ص ٣٧

(٤) « « ص ٣٨

ومع أنه كان يعرف من طلائعه وعيونه مبلغ ما انتهت اليه من التفكك والضعف عقب موت كافور ، فانه لم يدخر عدة في الرجال أو المال ، واليك رواية توضح لنا ضخامة هذه الأهبة : استدعى المعز يوماً أبا جعفر حسين بن مهذب متولي بيت المال ، وهو في وسط القصر ، وقد جلس على صندوق وبين يديه ألوف صناديق مبددة ، فقال له : هذه صناديق مال ، وقد شذ عني ترتيبها ، قال الحسين ، فأخذت أجمعها حتى رتبت ، وبين يديه جماعة من خدام بيت المال والفراشين ، فلما رتبت أمر برفعها في الخزائن على ترتيبها ، وأن يغلق عليها ويختم بخاتمه ، وقال : قد خرجت عن خاتمنا وصارت اليك ، فكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف دينار ، وكان ذلك في سنة ٣٥٧ هـ ؛ فأنفقت جميعها على الحملة التي سيرها إلى مصر [١] ؛ ويقال إن الحملة الفاطمية على مصر بلغت نيفاً ومائة ألف فارس ، غير الجند المشاة [٢] ، وهي قوة زاخرة تقتضي لكي تقطع هذا القفر الشاسع بين افريقية ومصر بعددها وعددها جهوداً جبارة ؛ ولقد أذكى منظر تلك القوى الجرارة وأهباتها الهائلة وقت خروجها من القيروان إلى مصر في يوم من أيام ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ خيال الشاعر المعاصر ابن هانيء ، فأنشد في وصفها :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع ... وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثـله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
الا ان هذا حشد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل في أرض بناها مدائناً ... وإن سار عن أرض غدت وهي بلقع
تحل بيوت المال حيث محله ... وجم العطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله إذ بدا ... وظل السلاح المنتضى يتقعقع
وعب عباب الموكب الفخم حوله ... ورق كما رق الصباح الملمع
فان يك في مصر ظماء لمورد ... فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ولم تمض أسابيع قلائل حتى سرت الأنباء في مصر بمقدم

(١) الخطط ج ٢ ص ١٦٤

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٠٥ — ابن خلكان ج ١ ص ١٤٨

العساكر الفاطمية ؛ ولم يكن مشروع الفاطميين فى فتح مصر مجهولاً ؛ وكان للمعز بمصر دعاة يبثون دعوته خفية ، ويبشرون بالفتح الفاطمى[١] . ولم يك ثمة ما تخشاه الأمة المصرية من هذا الفتح ، خصوصاً بعد الذى شهدته من عسف الجند العباسيين ، وطغيان الولاة المستعربين ، وما انتهت إليه شؤونها فى أواخر عهد الدولة الأخشيدية من الاضطراب والفوضى ، وما توالى عليها من محن الغلاء والوباء ؛ ولقد كان من سخرية القدر أن يتولى حكم مصر أسود خصى هو كافور ؛ وكان لهذا الحادث الفذ فى تاريخ مصر الاسلامية ، بلا ريب ، وقع عميق فى جرح الشعور القومى ؛ وكانت الدولة الفاطمية تجذب إليها الأنظار بقوتها وغناها ؛ وكان سواد الشعب المفكر يؤثر الانضواء تحت لواء دولة قوية فتية ، تستظل بلواء الامامة الاسلامية كالدولة الفاطمية ، على الاستمرار فى معاناة هذه الفوضى السياسية والاجتماعية ؛ وهكذا ألفى الفاطميون حين مقدمهم إلى مصر ، جواً ممهداً يبشر بتحقيق الفتح المنشود على خير الوجوه

ولما ذاعت الأنباء بوصول العساكر الفاطمية إلى الأراضى المصرية ، اشتد الاضطراب فى مصر ، وكثر الخلاف فى الرأى ، فرأى جماعة من الزعماء والجند من أنصار بنى الأخشيد وكافور أن يحاولوا رد الغزاة بقوة السيف ، وأخذوا يتأهبون للقتال ؛ ولكن معظم الزعماء المصريين آثروا مهادنة الفاتحين والتفاهم معهم ، وقر رأيهم على أن يتقدموا إلى جوهر بطلب الأمان والصلح ، واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات على أن يتولى تلك المهمة ؛ وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى أن يكون سفيرهم فأجابهم إلى ذلك ؛ وسار على رأس جماعة من وجوه مصر إلى لقاء جوهر ، فلقيه على مقربة من الاسكندرية ، فى قرية تعرف بتروجه ؛ (أواخر رجب سنة ٣٥٨) فاغتبط جوهر بمقدمهم وأجابهم إلى ما طلبوا ؛ وكتب لهم أماناً يعتبر وثيقة هامة فى الكشف عن غايات السياسة الفاطمية وأصولها المذهبية ؛ وفيه ينوه بمزايا الحماية الفاطمية على مصر « بعد أن تخطفتها الأيدى واستطال عليها المستذل ؛ الممعنة نفسه بالاقتدار عليها ، وأسر من فيها ، والاحتواء على نعمها وأموالها ، حسبما فعله فى غيرها من بلدان المشرق » وان أمير المؤمنين بادر بتسيير الجيوش المظفرة لمجاهدته وحماية المسلمين ببلدان المشرق مما شملهم من الذل واكتنفهم من المصائب والرزايا ، ثم يشير جوهر إلى ما تطرق إلى شؤون الحكم من فساد وإلى ما يعانيه الشعب من مظالم ومتاعب ، وإلى ما يزمعه أمير المؤمنين من إقامة العدل وتأييد الشريعة وإصلاح المرافق والشؤون ، ويختتم ببيان بعض الأحكام الشرعية الفاطمية وتوكيد الطاعة لأمير المؤمنين[١]

وفى هذا الأمان الذى أصدره جوهر لأهل مصر إشارة ظاهرة إلى خطر القرامطة الذين كانوا قد اجتاحوا الشام يومئذ ، وأخذوا يهددون مصر ؛ وقد كان الخطر حقيقياً لا ريب فيه ، ولو لم يبادر الفاطميون إلى احتلال مصر ، لسقطت قبل بعيد فريسة هينة فى يد أولئك الغزاة السفاكين ؛ بل لم يمض على وجود الفاطميين بمصر زهاء عامين حتى اضطروا إلى لقاء القرامطة فى أرض مصر ذاتها ولم يردوهم عنها إلا بعد جهد جهيد

على أن جوهراً اضطر مع ذلك إلى خوض بعض المعارك قبل أن يفتتح مصر . ذلك أن فلول الأخشيدية والكافورية ومن والاهم من الجند لم يقبلوا الأمان وآثروا أن يقوموا بمحاولة أخيرة للدفاع عن سلطانهم الذاهب ؛ فاختاروا لهم أميراً ، واحتشدوا لقتال جوهر بالجيزة ؛ ولما وصل الجيش الفاطمى إلى الجيزة ألفى القوى الخصيمة تتهيأ لرده عن عبور النيل ، فدفع جوهر بعض قواته فاجتازت النيل خوضاً ، ونشب القتال بين الفريقين ، فانهزم الأخشيدية بعد أن قتل منهم عدد كبير ، ولاذوا بالفرار وتم الفتح الفاطمى لمصر (منتصف شعبان سنة ٣٥٨)

واستجاب جوهر إلى رغبة المصريين كرة أخرى ، فجدد لهم الأمان ؛ وذهب الوزير ابن الفرات ، والشريف أبو جعفر إلى لقائه على رأس العلماء والكبراء ؛ وسار جوهر فى ركبه المظفر إلى عاصمة مصر فى عصر يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليه سنة ٩٦٠ م) « وعليه ثوب ديباج مثقل ، وتحته فرس أصفر[٢] » ؛ وشق مدينة مصر (الفسطاط) ونزل فى المكان

(١) انعاظ الحنفاء ص ٦٦

(١) راجع هذه الوثيقة بنصها فى اتعاظ الحنفاء — ص ٦٧ — ٧٠

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ .

الذى غدا فيما بعد مدينة القاهرة ، واختط العاصمة الجديدة فى نفس الليلة إيذاناً بقيام الدولة الجديدة ، وبعث البشرى إلى مولاه المعز بالفتح العظيم ، فوصلته فى منتصف رمضان ، وأنشد ابن هانئ بهذه المناسبة قصيدة مطلعها :

يقول بنو العباس قد فتحت مصر

فقل لبني العباس قد قضى الأمر

وقد جاوز الاسكندرية جوهر تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

— ٤ —

وقامت القاهرة عاصمة الدولة الجديدة بسرعة ، وأعدت بقصورها ومسجدها الجامع (الجامع الأزهر) لتكون منزلاً ملوكياً لبنى عبيد وعاصمة للخلافة الفاطمية ، وبدأ الحكم الفاطمى بمصر على يد مبعوث الخليفة الفاطمى وقائده جوهر ؛ وكان خطر القرامطة الذى أشار إليه جوهر فى رسالته لأهل مصر يشتد ويتفاقم ، ويهدد مصر بالويل والدمار ، وملك الفاطميين بالفناء العاجل . وقد زحف القرامطة على مصر بالفعل فى أوائل سنة ٣٦١ هـ بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم ، ونشبت بينهم وبين الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر ، معارك هائلة فى ظاهر الخندق (على مقربة من القاهرة) انتهت بهزيمتهم وارتدادهم نحو الشأم . ولما رأى المعز أن ملكه الجديد قد توطد بمصر ، سار من أفريقية إلى مصر بأهله وأمواله فى ركب هائل تفيض الرواية المعاصرة فى وصف ضخامته وروعته[1] ، فوصل إلى الاسكندرية من طريق برقة ، فى ٢٤ شعبان سنة ٣٦٢ ؛ وهرع وفد من أكابر المصريين للقائه وتحيته عند المنارة ، فقال لهم « إنه لم يسر إلى مصر لازدياد فى الملك أو المال ، وإنما سار رغبة فى الجهاد ونصرة المسلمين واقامة الحق والسنة »[2] . ودخل المعز القاهرة ، عاصمته الجديدة فى أوائل رمضان ، ولما وصل إلى قصره خر ساجداً فى مجلسه شكراً لله ، ثم صلى ركعتين ، وصلى بصلاته كل من دخل[3] ؛ وسطعت فى الحال آيات من عظمة الملك الجديد

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤ واتعاظ الحنفاء ص ٨٨

(٣) اتعاظ الحنفاء ص ٩٠

وبذا استقرت الخلافة الفاطمية فى مصر ، وبدأت زعامتها الدينية فى المشرق ؛ وكانت الامامة الدينية أخص الصفات التى تبدو بها الخلافة الجديدة ، وكان المعز لدين الله يحرص جد الحرص على صفة الامامة ورسومها ؛ بيد أن الفاطميين قدموا إلى مصر يحيط بنسبتهم وامامتهم نفس الريب الذى أحاط بهما منذ قيام دولتهم فى المغرب ؛ وقد أثيرت هذه المسألة عند مقدم المعز إذ اجتمع به جماعة من الأشراف العلويين الذين ينتسبون إلى على وفاطمة ، فسأله الشريف عبد الله بن طباطبا عن نسبه ، فأجابه المعز أنه سيعقد مجلساً ويتلو عليهم نسبه . ثم عقد المعز مجلسه بالقصر ودعا إليه الكبراء ، وسل نصف سيفه من غمده وقال لهم هذا نسبى ؛ ونثر عليهم ذهباً كثيراً ، وقال هذا حسبى ؛ فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا ![1] ، وفى ذلك ما يدل على اعتداد الدولة الجديدة بقوتها وجاهها ، قبل اعتمادها على امامتها وهيبة انتسابها لآل البيت ، وان كانت قد اتخذت الامامة شعارها لدى الكافة منذ الساعة الأولى ، وأقامت ملكها السياسى على أسس دعوتها الدينية

وكان عهد المعز بمصر عهد توطيد ودفاع عن الملك الفتى . وكان خطر القرامطة لا يزال جاثماً فى الأفق ينذر دولة الفاطميين الجديدة بالمحو والفناء . ولم يمض بعيد حتى غزا القرامطة دمشق وانتزعوها من يد حاكمها الفاطمى . ثم زحفوا على مصر بقيادة الحسن الأعصم كرة أخرى ، فلقيتهم جيوش المعز على مقربة من بلبيس فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ وأوقعت بهم هزيمة فادحة . بيد أنها لم تكن خاتمة النضال ؛ فقد لبث المعز حتى وفاته فى معارك مستمرة فى الشأم مع القرامطة والروم ؛ بيد أنه أتيح له قبيل وفاته أن يشهد ظفره ؛ ولم يغادر هذه الحياة ، (فى ربيع الثانى سنة ٣٦٥) حتى كانت الخلافة الفاطمية تبسط سلطانها وامامتها على المغرب ومصر والشأم والحرمين

(تم البحث) محمد عبد الله عنان

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٦ — النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٧

٣ - فريزر ودراسة الخرافة
الزواج(١)
للدكتور ابراهيم بيومي مدكور

قد لا تكون الخرافة استولت على أية ظاهرة اجتماعية استيلاءها على الزواج وشؤونه ؛ فرفعت قدره ، ودعت الناس إليه ، وحددت قيوده ، ونظمت ما يحيط به من طقوس ورسوم ؛ فلا يكاد المرء يفكر فى أن يتزوج حتى تتسرب الخرافة مسرعة إلى تفكيره هذا ، محاولة أن تعين له الزوجة التى تليق به ، وباحثة عما إذا كان نجمها يتفق مع نجمه ، وطالعها يتلاءم مع طالعه . وكثيراً ما أحيطت حفلات العقد والزفاف برقى وتعاويذ أملتها الخرافة وأحكمت وضعها . وبين ظهرانينا من هذه الخرافات الشىء الكثير ؛ « فالتبييته » ، وحساب الطالع ، وقراءة الكف ، « وضرب الرمل » ، ترمى غالباً إلى اختيار الزوجة الصالحة والشريكة الملائمة فى الحياة الأسرية ؛ وإذا ما قر رأى الشاب والشابة على الزواج أسبغت عليهما الأحراز والتمائم التى تقيهما الساحر وضره والحاسد وشره . فتارة يكتب لهما بالألفة والمودة ، وأخرى يحصنان مما يوقع بينهما الشحناء والبغضة . ولم تتعفف الخرافة عن التدخل فى العلاقات الجنسية بين المرء وزوجه فتثيرها وتنشطها ، أو تقف فى طريقها وتقضى عليها . وكلنا يعرف خرافة « الحل والربط » السائدة فى قرانا ، والتى كانت ولا تزال مصدر رزق لجماعة السحرة والدجالين ، وباب شر دائم وألم مستمر للزوجين ومن يتصل بهما من أهل وأصدقاء . طغت الخرافة كذلك على الأسرة المكونة فسولت لبعض الناس أنها قادرة على أن ترد العاقر ولوداً ، وتسلب أم الأولاد نسلها وتقضى عليها بالحرمان والعقم

لم يعن فريزر فى كتابه « محامى الشيطان » بدراسة هذه الخرافات المتعددة ؛ وإنما تفرغ لأيضاح نقطة واحدة هى موضوع كلمة اليوم . وتتلخص فى أن الخرافة غرست فى القلوب حب الحياة الزوجية وتقديسها ، وحملت الناس على احترام القواعد الخلقية والقوانين الجمعية الخاصة بالعلاقات الجنسية بين العزب والمتزوجين . ذلك أنها أثارت على الزنا والفسق حرباً شعواء وصورتهما فى أقبح صورة ممكنة ، فأبعدت الناس عنهما بقدر ما قربتهم من الحياة الأسرية المنظمة . فالزنا واللواط وكل اختلاط جنسى غير مشروع كانت ولا تزال لدى كثير من القبائل الهمجية من أخس الخطايا الخلقية التى لا يقع إثمها على مرتكبيها وذويهم فحسب ، بل يتعداهم إلى الطبيعة فيقلب نظامها ، وإلى الآلهة فيثير سخطها وغضبها . وربما أدت فعلة من هذه الفعال السيئة إلى هلاك الحرث والنسل ، وموت الزرع ، ويبس الضرع ، وسقوط المطر ، والرعد والبرق ، ونزول الصواعق التى لا تبقى ولا تذر . لذلك أضحى الزنا وتوابعه جريمة شعبية تهدد المجتمع بأسره وتعدو عليه فى أهم عناصر حياته من غذاء وماء وأمن وعافية

يزعم سكان برمانيا من أعمال الهند الصينية أن الزنا ذو أثر سيىء على الحاصلات المختلفة . فاذا ساء المحصول فى قرية من القرى أو انقطع عنها المطر عاماً أو عامين متتاليين اعتقد الناس أن ذلك راجع إلى ارتكاب الفحشاء التى أغضبت الآلهة . وإذا وقف البرمانيون على حادثة من حوادث الزنا ألزموا الجناة بشراء خنزير صغير يكون فى سكب دمه ما يغسل خطيئتهم الشنعاء ؛ وقد جرت عادة المتقرب أن يبتهل الى الله حين يقدم قربانه قائلاً : « إلـه الأرض والسماء والجبال والهضاب ، قد أجدبت الأرض من أجلى ، فلا تنزل علىّ جام غضبك ونذير سخطك ، وارأف بى وارحمنى . هأنذا أصلح الجبال وأسوى الهضاب وأحفر الأرض وأشق الأنهار ، فاللهم رد إلينا الحصل المفقود ، ولا تضيع علينا أى مجهود ، وأخصب أرضنا ، ونم زرعنا »(١)

ويعتقد كذلك كثير من برابرة أفريقية الغربية أن الآلهة تعاقب بالجوع والخوف والقحط والجدب كل جماعة انتهك فيها عرض إذ اعتدى على محرم . ويروى أنه سنة ١٨٩٨م انقطع المطر

(١) نأسف جد الأسف لأن ظروفاً قاهرة قضت علينا بقطع هذه السلسلة بضعة أسابيع . ولا يفوتنا أن نشكر الأستاذ محمد روحى فيصل على كلمته الرقيقة (الرسالة : عدد ١٠٨ ، ص ١٢١٢)

(1) Mason, Journal of the Asiatic Society of Bengol, (1868) s. XXXVII, 2= partie, p. 147 sq.

عن هذه الجهات زمناً طويلا ، فجفت الذرة ، واحترقت أوراق البطاطس والنباتات الأخرى . ففزع الأهلون إلى قسسهم يرجونهم أن يستكشفوا سر هذا السخط العظيم . وبعد تضرع طويل وابتهال خالص تبين هؤلاء القسس أن آلهة السماء غاضبة على سكان الأرض لسوء سلوكهم . فجمع كل رئيس أتباعه ، وأرسل فيهم العيون والأرصاد للبحث عن أصل هذه الجناية الكبرى . وقد أدى البحث الدقيق إلى إثبات أن ثلاث فتيات أجهضن أعراضهن وأكلن بأنداثهن ؛ وما إن همت القبائل بمعاقبتهن حتى نزل المطر مدراراً[١] ؛ ويزعم كثير من متوحشي سومطرة أن الزنا مجلبة للطاعون والأمراض المهلكة واعتداء الحيوانات المفترسة أمثال النمر والتمساح . وعلى الجملة فمعظم القبائل الهمجية الباقية إلى اليوم يعتقد أن كل اعتداء على العرض أو مخالفة لقوانين الزواج مصدر عقوبات سماوية كثيرة أخصها انقطاع المطر وجفاف الأرض ونقص الزرع

وليست هذه المتقدات بمقصورة على القبائل المتوحشة ، بل إن لها أثراً لدى بعض الشعوب المتمدينة . فالأغريق مثلا يؤمنون ببعضها ويفسحون للخرافة المجال في العلاقات الجنسية كما أفسحوا لها في شؤونهم الاجتماعية الأخرى . يروى سوفوكل أن بلاد تيبان أصيبت بالجدب والطاعون تحت حكم أوديب الملك الذي قتل عفوا أباه وتزوج أمه . فأصبحت القرى والحقول قفراء ، وأضحى كثير من المدن خراباً يباباً . وأعلن وحى (دلف) أن لا سبيل لرفع هذه الطامة ورد الحياة إلى هذه الأرض الموات الا بطرد المجرم[٢] . وفى شرائع بنى إسرائيل مايؤذن بأن ارتكاب الفحشاء يغير نظام الطبيعة ، ويبدل سنة الله فى خلقه . يقول أيوب : « الزنا جريمة شنعاء ، وخطيئة تستوجب قصاصاً لا مفر منه وناراً تأكل الشحم واللحم وتقضى على الحاصلات كلها »[٣] . وفى القرن الثالث الميلادى لم تؤت الحقول الأرلندية أكلها ، فيما يزعمون ، لأن أحد الملوك تزوج بأخته[٤] . وما لنا نذهب بعيداً وكثير منا يعتقد أن مرور الزانى بحقل أو وقوفه فى بيدر يؤذى ثمره وينقص غلته ويذهب ببركته

أما أخطار الزنا المباشرة وأثره السيء فى مرتكبيه أنفسهم ، فيكاد يسلم بها فى مختلف الجمعيات الانسانية . وكثيراً ما علل فقر الرجل وفشله فى صناعته أو زراعته بفجوره وفسقه . وإذا أصاب المرء أمر أو حل به حادث ، ظن الناس أن فى هذا انتقاماً منه لجرم اقترفه أو عرض انتهكه . والأمثلة فى هذا الباب كثيرة سواء لدى القبائل الهمجية أم فى الأمم المتمدينة ؛ وسنكتفى بعرض بعضها . فبدو روديسيا يلعنون كل امرأة تموت أثناء وضعها ، ويتهمونها بالفجور والفسق وقتل روح بريئة لا اثم لها . وتزعم طائفة من سكان أفريقية الشرقية أن الطفل الذى يعدو على زوج أبيه يصاب بعاهة دائمة . وتقول طائفة أخرى إن المرأة تموت إن أتى زوجها الفاحشة أثناء حملها ؛ وإذا لمس أب ابنه الصغير صبيحة ارتكابه المنكر مرض ولده على الأثر . وحدث مرة أن مات ثلاثة اخوة فى فترة قصيرة ، فاتهمت أمهم بالزنا مع رحم محرم . ويعتقد كثير من القبائل الهمجية أن خيانة الزوجة سبب محقق لفشل الزوج فى صيده ورحلاته وحروبه ؛ وربما أدى ذلك إلى موته . لهذا اعتاد كثير من الهنود ، إن خرجوا إلى الحرب ، أن يجمعوا نساءهم فى صعيد واحد كى ترقب إحداهن الأخرى

فواضح إذن أن الزنا وما اتصل به ، فى نظر كثير من الشعوب البائدة والحاضرة ، خطر يهدد الفرد والأسرة والجماعة ؛ فليس شره مقصوراً على مرتكبيه وحدهم ، بل يتعداهم إلى القبيلة جميعها والشعب بأسره ؛ هو جناية عامة وجريمة شعبية تصيب الأمة فى أموالها وأرواحها . لذلك قسا الناس فى محاربته وأنزلوا بالزناة أشد العذاب . وإذا صح أن نقيس الجريمة بما قدر لها من قصاص ، استطعنا أن نقول إن الزنا من أشنع الجرائم التى عرفها الانسان ، ان لم يكن أشنعها . وهذه القسوة الزائدة فى مطاردة الزنا والزناة سهلة التعليل ؛ فان المسألة مسألة حياة وموت ، مسألة دفاع عن مجتمع مهدد فى أعز شىء لديه ، فهو مدفوع بطبيعته إلى أن يحارب من يحاول الاعتداء عليه

ومن هنا كانت العقوبات الصارمة التى أنزلتها الأمم والشرائع المختلفة بكل من استباح عرضاً أوجنى على عفاف امرأة . فقوانين

(١) Dapper, Description de l'Afrique, p — 326
(٢) Sophocle, Aedipe—Roi, 22 sq. 95 sq.
(٣) Job, xxxi, 11 sq.
(٤) Keating, History of Irelaud, pp. 337 sq

(مانى) تقضى بأن ترسل على الزانية كلاب تنهشها جهرة تحت سمع الجمهور وبصره ، وعلى الزانى بأن يوضع فوق حديدة محماة يقلى بها قلياً [١] . وتعاقب قوانين حامورابى الزناة بالشنق والاغراق [٢] ؛ وقد كان بنو اسرائيل يحكمون على الزانى غير المحصن بالرجم ، وعلى المحصن بالقتل [٣] . ولا تزال بعض القبائل الهمجية تطبق هذه العقوبات على الزناة فى غير ما شفقة . ففى افريقية الوسطى يجلد الزانى وتهاجم حقوله ومنازله ويسلب ماله . وإذا تبين أحد الأحباش أن أخته أو ابنته ارتكبت الفاحشة قتلها جهرة وقتل عشيقها معها . ولدى الهوتيشوت قانون مشهور يحكم على الزناة بالقتل ضربا بعصا غليظة . وقد اعتاد سكان الهند الشرقية أن يرموا الزناة فى عرض النهر بعد أن يثقلوهم بالحجارة ، فاذا استطاع أحدهم النجاة عفى عنه ، وفى سومطرة يوأد الزانى ويقبر حياً

وهناك نوع خاص من الفحشاء اشتد هوله فقست الجمعية فى محاربته ، وهو ما كان بين أفراد الأسرة القريبين كالرجل وزوجة ابنه ، والمرأة وأب زوجها . ولكى يدرأ خطر هذا المنكر وضعت فى سبيله عقبات كثيرة تحول دون وقوعه ؛ وهذا هو السر فى أن القبائل الهمجية تباعد بين الأقارب الأقربين ، فى حين أنها لا تجد غضاضة فى أن يختلط الأجانب بعضهم ببعض ، فجماعة البنتو فى افريقية الوسطى لا يسمحون مطلقاً للرجل بأن يتناول طعام العشاء مع حماته ، ولا للمرأة بأن تتعشى مع حميها منفردين ، ومن الجرم أن يرى رجل حماته تأكل ؛ وعليه أن يكفر عن هذا بمختلف القرابين ، وليس له أن ينعم النظر فيها ، وإذا خاطبها وجب عليه أن يطأطئ رأسه ويغض من طرفه ، وإن صادفها على غرة أفسح لها الطريق ، وسارع إلى الغابة مختفياً كى لا تراه ولا يراها تماماً . وأغرب من هذا أن أهل سومطرة لا يبيحون للرجل أن يأكل مع صهره عارى الوجه ؛ وإذا رأى صهره فمه مفتوحاً أحس بخجل عظيم ، وتوارى فى الغابات المجاورة ، فهذه العادات والتقاليد الغريبة يفسرها شىء واحد ، وهو أن هذه القبـــائل تحول دون أى اختلاط يكون وراءه معصية الأقارب الأقربين

(١) Laws of Manu, VIII, 371 sq.

(٢) Code of Hammurabi, parag. 129,157.

(٣) Deutêrouowe, XXII,22.

نرى بعد الذى تقدم أن الخرافة صورت الزنا والفسق بصورة شنعاء لدى كثير من الشعوب قديمها وحديثها ، وأبرزتهما فى مظهر عاملين خطرين من عوامل القضـاء على الفرد والأسرة والجماعة ، وبذا استطاعت إلى حد كبير محاربتهما والقضاء عليهما . وإذا كانت الجمعية تنظر بعين السخط والمقت إلى كل اختلاط جنسى غير مشروع ، فانها تدفع الأفراد تبعاً إلى احترام الزواج والخضـوع لقيوده . وكل رأى أو عقيدة أو تشريع يحارب الأباحية هو فى الوقت نفسه سلاح قوى لتثبيت دعائم الحياة الأسرية ؟

(له بقية) ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

البـــــدر الحسنى

محدث ونحوى أيضاً

للأستاذ عبد القادر المغربى

عضو مجمع اللغة العربية الملكى

وهى الكلمة التى ألقاها الأستاذ المغربى رئيس المجمع العلمى فى الحفلة الكبرى التى أقيمت على ذكر المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسنى والد فخامة الشيخ تاج الدين رئيس الوزارة السورية ، وذلك فى يوم الثلاثاء ١٣ من أغسطس سنة ١٩٣٥ ، وقد أقيمت الحفلة فى مدرج الجامعة السورية

شيخُنا البدر ، أشبه ما يكون بالبحر : فهو من أىّ النواحى أتيتَـه وجدت علماً وفضلا ، ووجدتَ ورعاً وتقوى ، ووجدت من جميل خصاله ومستحبّ أخباره مجالاً للقول ، وموضعاً للعظة ، وموضوعاً للبحث

لـكننى لضيق الوقت سأقتصرُ من ترجمة حياته على وصف [١] طريقتنا فى الدروس التى أخذناها عنه ، تعرفون منها أنه كان رحمه الله نسخةً طبق الأصل عن رجال سلفنا الصالح فى ورعهم وتقواهم ووقوفهم عند حدود الشريعة

(١) تفصيل وصف هذه الدروس وسيرة الشيخ بدر الدين فى العددين الأخيرين من مجلة المجمع العلمى

في شهر ذي الحجة سنة ألف وثلثمائة وأربع وثلاثين بدأتُ بقراءة صحيح مسلم على شيخنا رحمه الله في دار الحديث الأشرفية ، وشاركني في هذه الدراسة قليلٌ من الاخوان ، حتى إذا أتممتُ صحيح مسلم وشرعتُ في سُنن الترمذي ازدحمَ علماءُ دمشق وفضلاؤها على غرفة الدرس ؛ وكنتُ عدا ضبطِ الأحاديثِ والتعليقِ عليها ، ألتقطُ من فم شيخنا بالمناسبة فوائدَ تتعلق بعلم الحديث ، من ذلك قوله :

— كلُّ حديثٍ فيه لفظ (الحميراء) مثل حديثِ (خذوا ثلثي دينكم عن هذه الحميراء) يَعنون عائشةَ رضي الله عنها — فهو دليلٌ على ضعفه

— حديثُ (توسَّلوا بجاهي الخ) : قال شيخنا اشتهر على الألسنة وهو غيرُ صحيح

— حديث : إن جبريل كان يدسُّ الطينَ في فمِ فرعون كي لا ينطقَ بالشهادتين استبعدتُه أنا ، وأقرّني الشيخ قائلا : (الله أعلم بصحة هذا الحديث)

— وسمعتُه مرةً يروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الهُوا والعبوا فاني أكره أن أرى في دينكم غلاظة) وبديهيٌّ أن المراد باللهو واللعب المباحان شرعاً

وبمناسبة حديث الأَمَةِ التي سألها النبيُّ صلى الله عليه وسلم : أين ربك يا جارية ؟ فأشارت إلى السماء — قال الشيخ : (مرَّ عيسى عليه السلام برجلٍ يصلي وصنعتُه عملُ البراذع وهو يقول في سجوده : (دُلَّني يا ربِّ على حمارك لأصنعَ له برذعة من ذهب) فاعترضه عيسى . فأوحى الله إليه : (دعه فانه مجَّدني بحسب عقله)

وكنا أحياناً نلمح في الحديث بصيصاً من معنًى يتعلق بأحوالنا الاجتماعية ، فنريد شيخنا على التوسع في شرحِ الحديث ، فيأبى تورعاً وخشيةَ أن نقعَ في باطلٍ من القول :

جاء في حديث عائشة أن جبريلَ أراه صلى الله عليه وسلم صورتها في قطعةٍ من جيِّد الحرير . فتساءلنا في الدرس عما إذا كان هذا الحديث يدلُّ على جواز التصوير ؟ أو على جواز أن يرى الرجلُ من يَودُّ خِطبتها من النساء : فيكون التصوير حاجةً من حاجات الاجتماع

فقال أحد الاخوان : مادام للرجل الحقُّ أن يرى خطيبته نفسها فليس ثم حاجةٌ إلى رؤية صورتها . فرد عليه آخر بأنه قد يتفق أن يكون هو في بلدٍ وهي في بلد آخر فيحملَ اليه البريدُ صورتها ، كما حمل جبريلُ صورةَ السيدة عائشة

كان يجري هـذا الحوارُ في الدرس وشيخنا ساكت وأردناه على أن يفيدنا ماعنده في هذا الموضوع فلم يفعل ، وظل ساكتاً . واستدرجتُه مرةً إلى موضوع عصريٍّ طريف فأفتى به أو كاد . ثم عاد إلى الاعتصام بالسكوت :

ذلك أنه مرَّ معنا في حديث مسلم قوله : (لِمَ ؟ أصلي فأتيمم) ، فقرأتها (لمْ أصلي فأتيمم) واستشكلت رفع (أصلي) ، فقال الشيخ (لِمَ) للاستفهام لا للجزم ، وأصلي مستأنف مرفوع

فاغتنمت هذه الفرصة وقلت له : إنهم اليوم اصطلحوا على علامات يرقمونها بين الجمل ، ويسمونها علامات التنقيط : وهي نقطة ، ونقطتان ، وواو صغيرة كالضمة ، وخط صغير أفقي ، وخط آخر عمودي ، وغير ذلك مما يستعملونه في مقامات التعجب والاستفهام والوقف

فقولُ الحديث (لِمَ أصلّي فأتيمم) ؛ لو وُضعتْ علامة الاستفهام بعد (لِمَ) لقُرِئت استفهاماً من أول الأمر

فهل يجوز لنا استعمالُ هذه العلامات المستحدثة في كتاباتنا كما استعمل السلف الصالح ما أحدثوه من النقط والتشكيل ؟

قال الشيخ : يجوز ، قلتُ ونستعملُها في كتب الحديث ؟ قال يجوز ، قلت وفي القرآن . قال يجوز

ثم سألني قائلاً : ولكن لماذا لم تُرْقَم هذه العلامات في كتابِ مسلمٍ المطبوع الذي نقرؤه ؟ قلتُ لأنه كتابٌ دينيٌّ . وطابعوه يخشوْن إنكارَ بعضِ العلماء عليهم فلا يباع الكتاب ، فلم يضعوا هـذه العلامات ، واجتهدتُ أن لا أسميها له بأسمائها الأفرنجية مثل (Point) (Virgule) فلحظ الشيخُ أن في الأمر سراً ، فتبسم وضرَب على كتفي وقال : « الله يُصالحك » ولم يُردْ أن يُفتي بشيءٍ جديدٍ قد يمكن أن تكون فيه شائبة بدعة

إلى هذا الحد كان شيخُنا رضي الله عنه يَحرصُ على سلامة الدين ويحذَر أن يَتسرَّب إليه شيءٌ من البدع

ومن ذلك أيضاً أنه مرَّ معنا في الحديث نهيُ النبي صلى الله عليه وسلم عن تشييدِ المساجد ، وفسر ابنُ عباسٍ التشييد بالزخرفة ، فقال بعض الأخوان : المرادُ بالتشييد رفع بناء المساجد . فقلتُ بل الصحيحُ ما قاله ابنُ عباس من أن التشييد هو الزخرفة

وهو مشتقٌّ من (الشـيد) الذى معناه الجصّ ، والجصّ عادة تزخرف به الأبنية . أما رفع بنـاءِ المساجد فأمرٌ مستحبٌ فى عمارتها ، وذلك لـكى يتخـلّلها الهواء ويَسْهُـل التنفّسُ على المصلين ، فالتفتَ إلىَّ الشـيخُ وقال مبتسماً : وما دخل الهواءِ والتنفس فى الدين والتشريع ؟ وعجبَ من قولى أشدَّ العجب

* * *

أما أن الشيخَ كان متوسماً فى اللغة العربية ؛ فهذا يلحظُـه منه كلُّ من أطالَ مجالسته ، وراجعه القولُ فى تفسيرِ غريبِ الحديث ؛ ولـكنه رحمه الله ما كان يُكثر من الاستشهاد بنصوص الأدباء ، ولا بأقوالِ الشعراء ، لما يقعُ فيها أحياناً من اللغوِ وعَبَثِ القول

وقد سمعتُـه مرةً يُنشد بنغمة حزينة :

(أيا نجدُ لو كان النوى منك مرةً
صَبرنا ولـكنَّ النوى منكَ دائم)

وأنشدنى مرةً أخرى :

صديقُ الصدقِ فى الدنيا قليل
فمنْ لكَ إنْ ظَـفِرتَ به فمن لك
لحاجته يَوَدُّكَ كلُ شخصٍ وذاكَ إذا قضاها منك ملك
صديقُـكَ مَنْ إذا ما كنتَ منه
طلبتَ الروحَ بالتمليكِ ملّك

وجاء يوماً ذكرُ طرابلس الشام وليمونها فسألنى : ما معنى قولهم فى المثلَ (مَنْ لم يجىءْ بشرابِ الليمون يجىءْ بشوكهِ وحَطَبه) فتجاهلتُ الجواب لأسمعَ من فمه ولو مرةً تفسيرَ النصوص الأدبيـة — كما سمعتُ منه مراراً تفسير النصُوص الدينيـة

ففسره لى قائلاً :

المرادُ بشوكه وحَطَبه قُضبانُـه وعيدانه . والمعنى من لم يجىءْ باللين واللطفْ ، يجىءْ بالشدّة والعُنْف

وأنشدنى يوماً قولَ الراجز :

(التمرُ والسَّمْنُ جميعاً والأقِط
الحيْسُ إلاَّ أنه لم يختلط)

فاعترضتُ بأن الحيسَ هو حلوى للعرب تـكون مختلطةً من التمر والسمن والأقط الذى هو ضربٌ من الجبن فـكيفَ يقولُ الشاعر (لم يختلطْ) . ثم قلتُ للشيخ لعلَّ صحةَ الروايةِ فى البيتِ هكذا : (لـكنْ شرطُـه أن يختلط) . ثم راجعت كُتُـبَ اللغة فوجدتُ روايةَ البيت كما قال شيخنا رحمه الله ورأيتُ علماءَ اللغة استشكلوا البيتَ كما استشكلته أنا . وأجابَ بعضهم على هذا الاشكال بجوابٍ لم يُعجبنى

ومن عادةِ شيخنا رحمه الله أنه إذا طَـلبَ منه أحدٌ إجازةً بالعلوم تمنّعَ وتمثّـل بقول القائل

(ولستُ بأهلٍ أن أجازَ فـكيفَ أنْ
أُجيزَ ولـكنَّ الحقائق قدْ تخفى)

وأنقـلُ من مذكّراتِ شاعرنا (خليل بك مردم)

— وكان رفيقى فى درس صحيح مسلم — هـذا الخبرَ الذى يتعلَّقُ بى ، وقد أنسيتُـه أنا وهو : أننى قرأتُ يوماً على الشيخ عدةَ أحاديثَ يدلُّ ظاهرها على عَدَم إيمان أبى طالب . فأطبقتُ الـكتابَ بين يَدَىَّ وسألت شيخنا عن حقيقةِ ذلك وأبيتُ إلا كلمةً صريحةً منه يطمئنُّ إليها القلبُ فى إيمان عمّ النبىّ صلى الله عليه وسلم . فامتعضَ الشيخُ من إلحاحى ، وقالَ سبحانَ الله ياشيخ عبـد القادر أنت كاتبٌ وأديب ، أما سمعتَ ما قاله (أبو طالب) مخاطباً النبىَّ صلى الله عليـه وسلم

ودعوتنى وزعمتَ أنك ناصحٌ ولقد صدقتَ وكنتَ ثَمَّ أميناً

فأنتَ تسمعُ أبا طالبٍ يقولُ لابن أخيه (ولَقَدْ صَدقت) ثم تستشكل ؟

فسررت يعلم الله بجواب شيخنا كما سرنى استظهاره للشعر القديم واستحضاره له حين الحاجة اليه

ولا عجبَ أن يكونَ شيخُنا لغوياً ، فانه لا يكادُ يوجد محـدِث إلا وهو لُـغَـوىّ ، ولا لُـغَـوىّ إلا وهو محدّث ؛ لأن المحـدث لا يمكنه أن يفهمَ معانىَ أحاديثِ الرسول إلا بعد فهمِ معنى كلماتها اللغوية ، واللغوىُّ لا ترسخُ قدمه فى اللغة مالم يستظهر الجمَّ الـكثيرَ من أحاديث الرسول ، تـكون له عُـدّةً فى الاستشهاد بها حين الحاجة فاللغوىُّ المتقنُ محـدِث ، والمحدث المتقنُ لُـغوى

وشيخُنا الذى يحفظُ على أقل تقدير خمسة آلاف حديث

يحفظ على أقل تقدير ألف كلمة لغوية بشواهدها من كلام النُّبوة

فأنتم تَرَوْنَ أن بين شيخنا البدْر ، وبين مجمعنا العلمى العربى نسبةً موصولةَ السببْ فى خدمة لغة العرب

هو (رحمه الله) كان ينشر اللغة العربية بواسطة دروسه المشهورة ، ونحن ننشرها بوسائطنا المجمعية المعروفة

أذكُرُ أنه زارنى يوماً فى دار المجمع العلمى ، فأجلستُه فى صحن المدرسة ، خشية أن يرى فى ردهتها صُوَرَ المتوفين من أعضاء المجمع ، معلَّقَةً على جُدرانها ، فيمتنعَ عن الدخول كما هى عادته

وبعد أن استقرَّ به المجلس سألنى : وماذا تصنعون هنا ؟

قلت : إننا يا مولانا نشتغلُ فى خدمة اللغةِ العربية ونشرِها وفى ذلك خدمة للدين الاسلامى ونشرِه

وإذا أحدُ تلاميذه (اللطفاء) يَلمَسُ كتفه من ورائه ، ويشير إلى التماثيل الحجرية المنصوبة فى أحد أركان المدرسة ، فقال لى الشيخ : وما هذه التماثيل ؟ وأشار اليها بأصبعه

فشعرتُ إذ ذاك بخطورة الموقف ، وبصعوبة الاعتذار عن وجودِ تماثيلَ فى صحنِ مدرسةٍ دينية اسلامية ؛ غير أن الله ألهمنى جواباً تضمَّن حقيقةً معقولة ، لكنها ويا للأسف منسيةٌ مجهولة

فقلت : إن هذه التماثيل تجْمَعُ فى دورِ الآثار للاستدلال بها على تاريخ الجاهلية الأولى ، ويدخل فى ذلك عبادةُ تلك الأمم للتماثيل ، وإرسالُ الرسل لانقاذهم من تلك العبادة ، كما كان من نبينا صلى الله عليه وسلم مذ أنقذَ أهلَ الجاهلية من الشرك ، وصَقَلَ نفوسهم بصقالِ التوحيد

ولكننا اليوم نرى الناسَ قد أغفلوا دراسة هذه الناحية من تاريخ الأمم القديمة ، ونسوا نعمةَ الله عليهم بالبعثة المحمدية ، حتى إذا رأوا هذه التماثيل فى المتاحف تذكَّروا النعمة ، وحمدوا الله عليها

قلتُ هذا وسكتُّ منتظراً ماذا يقول الشيخ ؟ فلم يقل إلا خيراً وتبسم ودعا لى وللمجمع

رَحِمَ الله شيخَنا البَدْر ، وأثابه عن حياتِهِ الصالحة بأجزل الأجر . . . ؟

المغربى

استعطاف

بقلم رفيق فاخورى

هواكَ عن هذا الوجودِ شاغلى ... والوجدُ منذ غبتَ عنى واصلى
إبعثْ مَرّاتَ خاطرى بزورةٍ ... واخطُ خُطا الظلال فى الخمائل

واحملْ إلى قلبى الكليم باسماً ... وشافياً من عَطفك الممنَّع
ما سَرّنى أنَّ النعيم قسمتى ... إنْ لم تكن فى ناظرى ومسمعى

لأنتَ حسبى مِنْ ضياء إن دجا ... يومى ، وحسبى من هُدًى فى حَيرتى
رُدَّ على عينى جَلاءها ومُرْ ... يَسطعْ مُحيّاكَ على دُجُنّتى

وينحسِرْ عن مقلتى سهادُها ... يا طالما منعتَها رقادَها !
عِدْنى أعشْ إلى غدٍ بنظرةٍ ... عابثةٍ كم أخلفتْ ميعادَها !

وبَسْمةٍ تُفحمنى ولم تَقُلْ ... شيئاً ، وإنما البيانُ فى الصُوَرْ
إذا عَلَتْ ثغرَكَ فدّاها الحشا ... بدَمِهِ ثم مشى على الأثر

وهمسةٍ أرقَّ من نَفْحِ الصَّبا ... تسكُنُ فى أُذْنَيَّ ما عاش الهوى
تألفُها جوارحى فكلُّها ... أُذْنٌ ، و ينزاح عن الصدر الجوى

يا مُنيةَ الولهان صِلْ بعد النوى ... أوْ لا فخُذْ قلبى وخُذْ لسانيا
هذا شغلتَهُ بذِكْرٍ دائمٍ ... وذاكَ قد أسهرتَه اللياليا

حمص **رفيق فاخورى**

طموح

للأستاذ محمود غنيم

خليليَّ هل للمجد حدٌّ فأنتهى ... إليه لقد طال العبورُ ولم أُرْسِ
مآربُ تترى ، كلما نلتُ مأرباً ... تنازعُنى عنه إلى غيره نفسى
فلا النفسُ إن أبلُغْ تقفْ عند غايةٍ
ولا هى إن أُخفِقْ تُرَحِّبَ باليأس
كذلك أشقى ما حييتُ فان أمت
فياليت شعرى ما ورائىَ فى رمسى

محمود غنيم

وراثة العبقرية

« نشرت مجلة (الشهر) الفرنسية بحثاً طريفاً فى وراثة العبقرية استعرض فيه كاتبه أحدث النظريات العلمية فى هذا الموضوع . فآثرنا نقله إلى قراء الرسالة »

شغلت مسألة وراثة العبقرية طائفة كبيرة من العلماء والفلاسفة منهم جالتون وموبياس وريبو ولمبروزو وكرتشمر وغيرهم من الباحثين

وهذه المعضلة تبدو فى أشكال مختلفة . تبدو أولاً كحالة خاصة من معضلة الوراثة على العموم . إذ ما هى الآثار التى يتركها الآباء والأمهات ؟ وبأى الأشكال تظهر ؟ وما هى الآثار النسبية فى تكوين الشخصية للوراثة المجردة من جهة ، وللبيئة والتربية من جهة أخرى ؟ وهل أثر الوراثة دائم أو غير دائم ؟ وهناك وجهة نظر أخرى تعتبر العبقرية والذكاء شذوذاً إذا قورنا بحالة الشخص العادى . وكثيراً ما يصحب هذه العبقرية وهذا الذكاء فقدان فى التوازن الجسمانى ، وغالباً فى التوازن النفسى . كذلك قد تصحبهما حالة جنون

ولأننا نعلم أن عدداً من هذه الأمراض ينتقل بالوراثة ، كان لنا أن نتساءل عن صدى هذا الاتجاه المزدوج : وراثة العبقرية ، ووراثة الاضطراب العصبى أو المرض

إن مما لا شك فيه أن (فى بعض الحالات) تكون العبقرية أحياناً وراثية . وقد ظهر ذلك جلياً فى كثير من رجال العلم والموسيقيين والمصورين والشعراء وكبار الكتاب

فبين العلماء استطاع جالتون أن يجد أسراً كان بها عالمان وأحياناً ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، وأحياناً أخرى أكثر من ذلك . ووجد موبياس ٢١٥ أسرة اتفق فيها أن كان الأب والابن وافرى الاستعداد الرياضى ، (بين هذا العدد ثلاثة وثلاثون والداً لكل منهم أكثر من ابن واحد موهوب) . وقد وجد هذا الاستعداد فى ثلاثة أجيال متتالية سبع عشرة مرة ، وبين خال وابن أخته عشرين مرة : وبين أبناء العم مرتين ، وبين أشقاء أو شقيقات ١٣١ مرة ، وبين أكثر من شقيقين ثلاثة وعشرين مرة . وكان العالم الفلكى الكبير (دومينيك فرانسوا آرجو) له ثلاثة أشقاء وولدان كلهم موهوبون فى استعدادهم الرياضى . وكانت أسرة برنولى Bernouilli أعظم أسرة علمية عرفها التاريخ مما دفع الأستاذ دوبليه الفلكى بمرصد بوردو أن يخصص للكتابة عنها كتاباً صدر عام ١٩٢٩ وسماه Les Bernouilli et le Bernowillienum وفى هذا الكتاب ذكر الأستاذ دوبليه أن أسرة برنولى شغلت كرسى العلوم الرياضية فى جامعة بال — مسقط رأسها — مائة عام وثلاثة دون انقطاع ؛ وبقيت أكاديمية العلوم فى باريس تحوى أحد أفراد أسرة برنولى مدة واحد وتسعين عاماً متوالية

وكما نرى أثر الوراثة بين العلماء نراه أيضاً بين الشعراء . وقد وجد جالتون اثنين من العباقرة فى الشعر بين أسر : بيرون وشنييه وجوته وهين وراسين . . . . وثلاثة أو أربعة فى أسر : أسكيل وارستوفان وكورنى وملتون . . . وخمسة أو ستة فى أسرتى كولردج ووردثورث . . .

ووجد جالتون اثنين من الكتاب والأدباء فى كل أسرة من أسر بوسويه وشاتوبريان وشامبليون وادجاربون ومل . . . الخ وثلاثة أو أربعة فى أسر بنتام وبوالو وفينيلون ولسنج وسفينى ، وخمسة أو أكثر فى أسر فيلينج وماكولى وشليجل وستايل وغيرها

وبين الموسيقيين نجد أسرتى باخ Back وسترس Strauss هما الأسرتين اللتين ظهر فيهما أكبر عدد من الموسيقيين . ويبدأ تاريخ أسرة باخ عام ١٥٥٠ ، واستمر يظهر منها الموسيقيون الموهوبون ثمانية أجيال متعاقبة ؛ وكان من عادة هذه الأسرة أن يجتمع أعضاؤها المغرمون بالفنون مرة فى كل عام ؛ فكان يصل عدد المجتمعين أحياناً إلى مائة وعشرين فناناً ؛ وقد ذكر فتيس Fétis أن هذه الأسرة حوت سبعة وخمسين موسيقياً منهم تسعة وعشرون كانوا فى عداد النابغين

على أننا لا ينبغى أن نخرج من هذه الحقائق بأن العبقرية (دائماً) وراثية . إذ أن توارث العبقرية محدد ببضعة أجيال فقط ، كما أنه ليست هناك قاعدة عامة لتوارث العبقرية . بل بالأحرى هناك استثناء . ويمكن أن نقول أكثر من ذلك وهو أن العبقرية الحقيقية دائماً منعزلة ، أو كما يقول لوردا Lordat : (إن العباقرة هم أطفال لقطاء ورجال أعزاب) Les génies sont des enfants trouvés et des célibataires. ويقصد بذلك أن الطبيعة تمحى حين يخلق العبقرى

ولو كانت العبقرية تنتقل بالوراثة دائماً لكان من الضروري أن توجد (أجناس) معينة من العباقرة . وهذا ما لا وجود له . (إن العبقرية حادث فجائي يكون أحياناً وراثياً) Le génie est un accident, qui est parfoit héréditaire.

وقد ذكر لومبروزو الملاحظة الآتيـة : (إذا وضعنا جانبا عدداً قليلاً من الحالات الاستثنائية كالتي نجدها في أسر دارون وكاسيني وبرنولي وسـان هيلير وهيرشل ، وجدنا أن العبقري لا ينقل إلى ذريته إلا اتجاهاً حقيقياً يعظمه في عيوننا الاسم المجيـد !)

إن أبنـاء العباقرة هم في الغالب مخلوقات عادية بل أقل من العادية . ويقول ج . مورو دوتوز : (إن الملاحظة العامة ترينا أن غالبية أبناء الرجال العباقرة ليسوا فقط أقل من آبائهم ، بل هم كسائر الناس العاديين) ، وقد أكد ألـكسندر تاسوني Alexandre Tassoni أحد كتاب القرن السابع عشر أنه كثيراً ما يحدث أن ينجب آباءٌ عباقرة أبناءً عظيمي الغباوة ، وآباءٌ شديدو الغباوة أبناءً علماء . واستشهد على النوع الأول بأبناء أفريكان الـكبير وأنطوان وشيشرون ومارك أوريل وسقراط . ويعتقد أوسوالد الـكيميائي الألماني الشهير أن أبناء الرجل العبقري لابد أن يكونوا أقل منه

وذكر تاسوني رأى أحد العلماء المعاصرين له وكـان يفسر النقص في كثرة أبناء الرجال العباقرة بقوله : (في الرجال العظام تتجمع معظم القوى الحيوية في المخ كيما تقويه وتبعث الحيـاة والعنف في القوى الفكرية . ولهذا السبب يكون الدم والخلية باردين ضعيفين . والنتيجة أن يكون أبناء أولئك الرجال وخصوصاً الذكور أغبياء)

وهناك حقيقة أخرى هامة فيما يختص بوراثة العبقرية ، وهي أن هناك ظواهر من الجنون والاضطراب العصبي تحول دون وراثة هذه العبقرية . ذلك أن العبقري تصحبه غالباً أنواع خاصة من الأمراض النفسية . وكثيراً ما يلاحظ المرض العقلي عنـد سلف وخلف الرجل العبقري . ومن المعلوم أن الجنون ينتقل غالباً وبكثرة شديدة في الأجيال القريبة . وحالات الجنون الوراثي في ثلاثة أجيال متعاقبة عديدة جداً . وكان الجنون فيها في الغالب من نوع واحـد . والآن ، أليس هنا تشابه — وإن لم يكن كاملاً — بين وراثة العبقرية ووراثة الجنون ؟

وقد ذكر مورو دوتور أن بين طبقات المجتمع التي تحوي أكبر عـدد ممكن من الرجال الممتازين بذكائهم الشديد يوجد أيضاً أكبر عدد ممكن من المجانين . وقد لاحظ كل علماء النفس أن هناك عدداً من المجانين لهم أقارب يتميزون بذكاء تتفاوت درجاته . من ذلك أولمبيا أم اسكندر الأكبر التي كانت امرأة فاسدة الخلق ظاهرة الوضاعة . وكان أب الاسكندر داعراً إلى أقصى حد . وكان الاسكندر نفسه مصاباً بحالة عصبية في كوعه . وكان شقيقه أريدوس — الذي قتل بأمر أولمبيا — أبله معتوها

وكان ابن برناردين دوسانت بيير ، وإحدى بنات ڤكتور هوجو ، ووالد وأشقاء ڤيلمان ، وشقيقة الفيلسوف كانت ، وشقيقة هيجل ، وغيرهم وغيرهم كانوا جميعاً مجانين . وكانت شقيقة ريشليو تتصور أن ظهرها من البلور ، وكان شقيقه معتوهاً . وكان والد الموسيقي بيتهوفن مدمناً الخمر ، وكان الشاعر بودلير نفسه نصف مجنون . وقد كتب يقول : (إن والديّ اللذين كانا إما معتوهين أو مجنونين قد ماتا ضحيتي جنون فظيع) وكان والدا الشاعر الأمريكي الشهير ادجار بو شديدي الادمان لتعاطي المشروبات الروحية

وكانت تحدث لشاتوبريان حركات تشنجية في ذراعه ، وكان دائم التفكير في الانتحار ، وكان أخوه نصف مجنون ؛ وكان والد بلزاك غريب الأطوار ، وكذلك كان بلزاك نفسه . وكانت جورج صاند شـديدة الانقباض والحسرة وهي في السابعة عشرة من عمرها ، وقد حاولت الانتحار فيما بعد عدة مرات . وقد كان والدها يشبهها من هاتين الناحيتين . وكان كثير من أقارب هوفمان مجانين . أما هوفمان نفسه فقـد أصابه الخرف لطول استسلامه للشراب ، وكان يتصور أمام عينيه أشباحاً ويصيبه من جراء ذلك الرعب الشديد ، فيطلب من أمه أن تجلس بجانبه . وكانت خالة هيرتز مجنونة وأخته شديدة الـكآبة ؛ وقد جن ابنها

وكان أثر الوراثة المرضية بارزاً في لورد بيرون . إذ كان أبوه رجلا فاسد الخلق وقحاً . وكانت أمه غريبـة الأطوار متكبرة طائشة . كذلك كان شوبنهور وارثاً لما كان عليه من غرابة الميول واضطراب الأعصاب . فقـد كانت خالة جدته وجدها مجنونين . وكان أبوه تنتابه نوبات قوية من الغضب المتزايد والهم

الدفين الذي يكشف عن نفسيته المريضة

وكانت أسرة الفيلسوف رينان – الذي كان يعذبه اضطراب أعصابه – تسودها أنواع مختلفة من الجنون؛ وكان عمه مأفوناً. وقد قضى حياته في التصعلك حتى وجد ذات ليلة ميتاً على قارعة الطريق. وكان جد رينان شديد الوطنية عظيم الاخلاص، ولكنه فقد عقله عام ١٨١٥ م نتيجة همّ ألمّ به. وقد أصبحت بلدة تريجويير التي ولد بها رينان ممتلئة بالمجانين وأنصاف المجانين نتيجة إكثار أهلها من زواج بعضهم ببعض

فما ذكرنا يظهر أن العبقرية ليست محدودة. وأنها لا تمتد إلا لأفراد مخصوصين، فلا بد اذن من أن نعرف أن هناك شيئاً آخر غير الوراثة المجردة. إن العبقري يظهر في الأسرة في لحظة معينة ولا يمكن أن يظهر قبل ذلك. كذلك قد يتبعه وقد لا يتبعه عباقرة آخرون. والأب العبقري قد يكون له ابن عادي، وقد يكون هذا الابن غبياً. وإذا استمرت الأسرة في إنتاج عباقرة كثيرين فان هذه الظاهرة تقف بعد بضعة أجيال كأن الطبيعة قد نالها الرهق والضنى. وأخيراً كثيراً ما يحدث أن يحل الجنون محل العبقرية ويكون ذلك راجعاً إلى نوع خاص من الوراثة متأثر بعوامل غير وراثية

وقد قال البعض: إن الوراثة والبيئة يتعاونان معاً بنشاط على إيجاد العبقري، إذ أن (الوراثة) لا تنتج في الرجل إلا (ما يمكن أن يكون) وليس ما سيكون، أما آثار الوسط وحدها فهي قادرة على تحويل الاحتمال إلى أمر واقع. على أن (الوسط) لا يكون تأثيره بعد الولادة فقط، بل إنه يؤثر في الشخصية المستقبلة قبل الولادة، وذلك بطرق مختلفة

ولقد عملت أبحاث في جلاسجو عن علاقة عدد المواليد بالذكاء فظهر أن عدد المواليد يزيد عند الرجال الأقل ذكاء، كذلك الأسر يتكاثر عددها كلما قلت الكفاءة العقلية عند أعضائها

إن العبقرية شذوذ وشرود عن الحالة العادية، وهي بلا شك اضطراب أكيد؛ هي حادث فجائي، وكذلك الجنون، وهذا الحادث الفجائي قد يرجع إلى حالة الوالدين قبل الحمل أو إلى اضطراب يصيب الجنين، فما يحدث للوالدين قد ينتج عند الطفل نوعاً من الشذوذ النافع، وقد ينتج تشوهاً في خلقته، أو يؤدي إلى التحام الجنينين بعضهما إذا كانت الأم تحمل اثنين: وهذا الشذوذ قد ينتقل بدوره بالوراثة. على أن انتقاله يكون بدرجة محدودة ولبعض أجيال فقط، والاضطراب الذي يحدث في حالة عدم استمرار التحام الجنينين قد يكون أثره فيما بعد إما أن ينتج عبقرية وإما جنوناً، أو اضطرابا في الأعصاب؛ وقد تجتمع الحالتان معاً. وأخيراً قد تتبع كل منهما الأخرى، أي أن يجمع الشخص أحياناً صفات العبقري ومواهبه، وأحياناً أخرى اضطراباً في الأعصاب يجعله أشبه ما يكون بمجنون حقيقي

وهناك أنواع من الشذوذ تنتقل أحياناً بالوراثة، وأحياناً لا تنتقل، مثل الحوَل، وقصر النظر، وصغر أحد أعضاء الجسم أو كبره أكثر من الحد الطبيعي؛ وأحياناً يكون هناك اتجاه نحو مصادر الانسان الأولى. وقد تكلم عن ذلك ريبو في كتابه عن (الوراثة) إذ ذكر أن أسرة كلبورن كان بها شذوذ الست أصابع Sexdigitisme (أي زيادة أصبع في اليد أو في القدم) وقد استمر هذا الشذوذ في الأسرة مدة أربعة أجيال

والآن، أليس هناك تشابه بين الشذوذ الجثماني والشذوذ العقلي الذي يسمى العبقرية والذي تكون فيه الوراثة أيضاً محدودة؟

ذكرت مدام ناجوت ولبوكفتش أن سيدة كانت تتبع عبثاً وسائل لاجهاض نفسها، فعند ما وضعت الطفل في ميعاده المعتاد كان هذا الطفل قويّ البنية ولكنه كان أبله. وكانت والدة (كاردان) قد حاولت إجهاض نفسها أيضاً عدة مرات دون جدوى، وكانت النتيجة أن أصبح الطفل الذي ولدته وهو (كاردان) عبقرياً فذاً؛ وقد تكون محاولة السيدتين كلتيهما إجهاض نفسيهما ليس هو السبب الحقيقي، لكن هذا التشابه كاف لأن يرينا كيف تنتج حالات الشذوذ التي تسمى بالعبقرية. والتي هي وراثية ولكن إلى درجة محدودة

إذن ماذا عسى أن يكون قانون هذا الشذوذ؟ ذلك مالا يعلمه أحد. ومنذ بضعة أعوام قال الأستاذ ج. هكسلي إنه قد يمكن في المستقبل أن يُجعل كل طفل عبقرياً بتغيير بعض غدده، وقد يكون ذلك حلماً خيالياً. على أن مجموع الحقائق المعروفة تثبت أن في تكوين العبقرية قانوناً ينتج (شذوذاً) خاصاً. فمن يدري؟ قد يستطيع الانسان في حالة فهم هذا القانون ودراسته أن يصنع العبقرية؟

(...)

دراسات في الأدب الانكليزي

٤ ـ وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

تتمـــــة

الحركة الابتداعية

أما أبطال هذه الحركة فهم : الفيلسوف الشهير كانت في ألمانيا ، والكردينال وسلي في بلاد الانكليز ، وروسو في فرنسا . ولا غرو في أن الأخير كان فارس هذه الحلبة وسيد زعمائها في مختلف البلدان . فقد نادى بالرجوع إلى الطبيعة ، وبسيطرة العاطفة على أعمال الانسان ؛ ونظريته في التربية تتلخص فيما يلي : « ترك غريزة الانسان وجسمه وقواه العقلية تنمو في مجراها الطبيعي ، وذلك بنبذ قيود المدنية الحاضرة ، والتقرب من الطبيعة »

وبعد مرور نحو ربع قرن على وفاة فيلسوف الثورة رجع شاعرنا صدى صوته في إقليم البحيرات ، وأصبح حامل اللواء (الرومانتيكي) في بلاد الانكليز . وتمتاز هذه الحركة بسمو مقام الرجل العادي ، فقد أصبح موضوعَ الأدب بدل الرجل الارستقراطي ؛ وهذه الميزة تظهر بجلاء في قصص سروالتر سكوت ، ودكنز ، وفي معظم قصائد شعراء القرن التاسع عشر ، وتشجع هذه الحركة حب الأطفال وتقليدهم لأنهم ـ كما أسلفنا ـ أقرب إلى الفضيلة من الشيوخ . ولقد رأينا شيئاً من هذا في أشعار وردذورث ، وظهر شيء منه في نثر « لامب » وخصوصاً فصله المشهور : « أطفال الحلم » ، وفي أشعار سونبرن أحد شعراء القرن التاسع عشر المتأخرين . وتمتاز أيضاً بالولع بالحيوانات الأهلية منها والبرية ، وبحب القصص التي تدور حوادثها على الحب والحرب ، خصوصاً ما كان منها شائعاً في العصور الوسطى ؛ والتي بطلها الرجل العادي لا الارستقراطي . ومن أهم مظاهرها شيوع الدين والتقوى ، والتأمل والبحث في أسرار الكون ، والخروج على العادات المألوفة ، والتمرد على الهيئة البشرية . ولقد اتُخذ الأدب سلاحاً لمحاربة سخائف الحضارة وقيودها ، ومن أهم أبطال هذا المظهر بيرون وشلي وكيتس . وتتميز هذه الحركة أيضاً بالتقرب إلى الطبيعة وانتزاع الموضوعات الأدبية منها ، والابتكار في اختيار الموضوع ، والتفنن في التعبير عنه ، لا النسج على منوال الأقدمين كما هو شائع في العصر الكلاسيكي

وإذا ما ألقينا نظرة على شعر وردذورث ألفيناه يمثل الأدب (الرومانتيكي) أصدق التمثيل ، وما يصدق على شعره يصدق على آرائه ونزعاته ، وخاصة في مستهل جهاده الأدبي ، حينما كان من أنصار الثورة الفرنسية التي كانت ثمرة فلسفة روسو بطل الحركة الابتداعية

زواجه ، كهولته ، منتهى حياته

تزوج وردزورث سنة ١٨٠٢ م من ماري هتشنسن ، من تلك العائلة التي كان يكثر من التراد عليها . ويُروى أنه أراد أن يغتفر زلّته مع خدينته « أنيت ڤالون » قبيل إقدامه على الزواج ، لهذا شرع في استرضائها بشتّى الوسائل ، والظاهر أنه نجح في ذلك . والذي نعلمه أن (أنيت) هذه لم تلاق جفاءً ومضضاً في عيشتها ، وأن ابنتها زُوجت من أحد السراة . وفي قصيدة للشاعر موضوعها « على الشاطئ قرب كاليس » يخاطب ابنته هذه ويرخّم بها بكل وداد وتحنان . على أن هذه القصة لا تزال طيّ الخفاء ولم ينكشف لنا منها إلا الشيء القليل . والباحث في ترجمة حياة وردزورث وتحليل عبقريته يود لو أنه ذكر لنا تلك الحادثة بالتطويل شارحاً بذلك عواطفه نحوها وحبه لها قبل وبعد وقوعه في الجرم . لو فعل الشاعر ذلك لوفّر على الباحث الشيء الكثير من الحدس ، ولأنار لنا هذه الناحية المهمة من حياته غير تارك بذلك مجالاً لتقوّل المتقولين ، وإشاعات المشيعين

ولقد وجد في زوجته امرأة سامية الخلق عالية المدارك شديدة العطف والاحساس ، لا تقلّ بذلك عن أخته دوروثي . فلا عجب أن رأينا دوروثي تخلد إلى الراحة بعد أن أدت واجبها إلى أخيها ونحو الأدب بكل أمانة وإخلاص ، إذ رأت في امرأة أخيها خير خلف لها . ولقد خلّد الشاعر اسم زوجته هذه في قصيدة موضوعها « هي مثال الرضا » She was a Phanthani of delight

وفي سنة ١٨٠٨ ورده نعي أخيه يوحنا ، فقد مات غرقاً في أحد المراكب التي كان يتولى إدارتها . فكان ذلك باعثاً للحزن والأسى في نفسه . وعلى أثر موت شقيقه نظم قصيدة خالدة عنوانها « أخلاق المجاهد السعيد » The charaitei of the Happy warrior مشيراً فيها إلى أخيه وحياته الحافلة بجليل الأعمال ؛ ولهذه القصيدة

من الشهرة ما جعل الانكليز والأمريكان يتلونها فى مآتمهم ، فيجدون فى ذلك ما يعزّى النفوس ويسرّى عنها الأحزان

وفى تلك السنة أيضاً انتقل الشاعر وامرأته وأولاده الأربعة إلى ألان بارك إلى بيت رحب الفناء جميل الشكل حيث أتم قصيدته : (النزهة) . هنالك افترق الشاعران الصديقان كولردج ووردزورث ، وذلك على أثر تعريض وردزورث بصديقه ووصمه إياه بالجنون الناتج عن إدمانه الأفيون ، فكان لهذا أثر بليغ فى نفس كولردج لم يطق بعده العيش معه ، وبانتهاء صداقتهما انتهت حياتهما الأدبية الخصبة ، ويندر أن تجد بين عيون قصائد وردزورث واحدة نظمت بعد ذلك الافتراق

وفى سنة ١٨١١ انتقل شاعرنا إلى بيت مجاور لأحدى الكنائس حيث توفى اثنان من أولاده ، إلا أنه لم يمكث هناك طويلا ، بل رحل سنة ١٨١٧ إلى بيته الجميل فى (كدل ماونت) حيث أتيح له أن يلتقى شخصيات ذات أدب جم ومكانة اجتماعية سامية ؛ ولقد قام برحلات شتى أهمها إلى أواسط أوربا ، وأخرى إلى سكوتلندا ، وعلى أثر رحلته الأخيرة نظم خمس عشرة قصيدة تفيض بذكريات الطفولة وأحلام الشباب ، منها قصيدته المشهورة (الحصاد المنعزل)

ولقد لبث طيلة هذه المدة مكلوم الفؤاد ، حزين النفس ، لما حل به من المصائب والويلات العديدة ، ولما كان يلاقيه من جفاء وخصومة فى الأوساط الأدبية . غير أنه حدث فى سنة ١٨٣٩ ما طيب نفسه وسرى عنه شجونه وهمومه ، وشجعه فى مبدئه ، فقد عرّفه كيبل Keble أحد كبار أساتذة كمبردج إلى أحدى الشخصيات الكبرى فى البلاط ، وأشاد بذكره أمام ذوى المناصب السامية ، فذاع صيته بين الخاص والعام ، وأحرز مركزاً رفيعاً فى الأدب لا يقل عن مركز ملتن

وفى سنة ١٨٤٢ منحته الدولة مرتباً سنوياً مقداره ٣٠٠ جنيه تشجيعاً ومكافأة له ؛ وبعد موت روبرت سذى سنة ١٨٤٣ عرض عليه منصب شاعر الدولة ، فرفضه فى بدء الأمر لبلوغه الرابعة والسبعين ، وقيل لأنه رأى صعوبة وعناء فى نظم قصيدة فى كل سنة يلقيها فى عيد ميلاد الملكة كما جرت العادة قبله ، غير أن رئيس الوزراء سر روبر بيل عاد وبعث اليه بكتاب نقتطف منه ما يلى :

« لما كانت صاحبة الجلالة توليك ثقتها الغالية فبادر بقبول هذا المنصب ، وكن عند أملها فيك . وإنها لتتوخى بعملها هذا أن ترفعك إلى المركز الذى يليق بمقامك الأدبى والاجتماعى ، ما دمت فى رأيها ورأى الجميع سيد الشعراء الأحياء على الاطلاق ؛ فلا ترفض هذه النعمة »

وبعد ما اطّلع وردزورث على هذا الكتاب الرقيق قبل هذا المنصب السامى فتُوّج بإكليل من غار ، وأصبح خليفة ملتون الأوحد ، ولم يُنتج بعد تبوئه هذا المركز الرفيع شيئاً خالداً ، بل استولى عليه الخمول منذ زواجه ، ومنذ أن بدأت الحكومة تمدّه بمعاش سنوى كاف . ومن القصائد المشهورة التى نظمها بعد ذلك الأوان واحدة ضمّنها ولاءه وشعوره نحو صاحبة الجلالة قدّمها إليها مع نسخة من ديوانه

وفى سنة ١٨٤٧ م تُوفيتْ ابنته (دورا) فعجلت بذلك وفاته . وكانت وفاته فى الثالث والعشرين من ابريل (فى اليوم الذى تُوفى فيه شكسبير) من سنة ١٨٥٠ م . وهكذا خمد ذلك النفس الذى كان يلتهب عاطفة وعطفاً على الفقراء وولعاً بالطبيعة

ولقد دُفن جثمانه فى كنيسة فى (قراسمير) – حسب طلبه – فى حضن ذلك الوادى الذى نشأ فيه وترعرع ، وبه تغنّى ، وبذكره أشاد.

ولقد أقيم له نصبٌ تذكارى من رخام فى مقبرة الشعراء فى (وست منستر أبى) تحيط به أنصاب تذكارية لكبل وأرنلد وكنجزلى وموريس ، ونقش على هذا النصب الكلمات التالية :

« لذكرى وليم وردزورث الشاعر الملهم والفيلسوف الكبير الذى وُهبَ عقلا نيّراً ، ولساناً غنياً ، ليتحدث إلى الطبيعة والبشر ، الذى لم يألُ جهداً فى نشر الفضيلة والكمال ، والذى تغنّى وأشاد بذكر البسطاء والفقراء ، فذاع صيته بين العام والخاص ، وأصبح رسول الحقّ وربّ الشعر . لذكراه يشيد أصدقاؤه والمعجبون بأدبه هذا النصب التذكارى ، لينطق بنبوغه على مدى الأيام »

الكرك — شرق الأردن جريس القسوس

مصادر هذا البحث

1 George Harper's W. Wordsorth, Life, Work and Influence
2 Zeitlin's Hazlit on Eng. Literature: ch. X
3 Wordsworth's Poetical Works: Students Camb. Edition
4 Goss' English Literature; Vol. IV
5 Cazamian's Eng. Literature; P. 1034 ff
6 Oliver Elton's Survey of Eng. Literature; Vol. II; P. 49 ff
7 Moody and Leavit's English Literature; P. 273
8 Wordsworth's Preface to Lyrical Ballads

صور من التاريخ الإسلامي :

عبد الله بن الزبير

(١ – ٧٣ هـ)

بقلم محمد حسني عبد الرحمن

تتمة ما نشر في العدد الماضي

وقد يكون من الانصاف للحق والتاريخ أن نثبت هنا آراء غيره ، ممن عاصروه ، في أسباب طلبه هذا الأمر ، وانهما كه فيه : يروى المسعودي أن ابن عباس كان يقول « أما والله ما عرفت عبد الله إلا صوّاماً قوّاماً ؛ ولكني مازلت أخاف عليه منذ رأيته تعجبه بغلاتُ معاوية الشهب ؛ وكان معاوية قد حجّ فدخل المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء ، عليها رحائل الأرجوان ، فيها الجواري الحسان ، عليهن الثياب معصفرات ، ففتن الناس بموكبه »

وقال ابن الزبير لامرأة عبد الله بن عمر بن الخطاب : إني لم أخرج ولم أطلب الخلافة إلا غضباً لله وللمسلمين من أثرة معاوية وابنه ، فهم يستأثرون بالفيء دون الناس ، ويستحلون محارمَ الله . قال هـذا وسألها أن ترجو زوجها في مبايعته ؛ فلما جاء زوجها ذكرت له ابنَ الزبير وعبادَته وجهادَه ، وأثنت عليه قائلة إنه يدعو إلى طاعة الله عز وجل وأطنبت في مدحه ، ثم طلبت من زوجها أن يبايعه ويؤيده ، فأجابها ابن عمر « ويحك ! أما رأيت البغلات الشهب التي كان يحج عليها معاوية قادماً إلينا من الشام ؟ قالت ، بلى ! قال والله ما يريد ابن الزبير بعبادته غيرهن !! »

فهذان اثنان من أقطاب الرجال في عصره ، ومن ذوي الشرف والفضل والنزاهة في المسلمين ، يقرّران أنه ما يبغي إلا الدنيا ، وأنه يتّخذ من العبادة سلما يرقى به إلى قلوب الناس ، ليسا عدوه على قضاء مأربه في الخلافة

والذي يمكن أن نستنبطه من ظروف الحوادث في ذلك العصر ، أن سعيه وراء الخلافة كان مبنياً على طائفة من الأسباب إذا راعيناها جميعاً ، أمكن التوفيق بين وجهات النظر المختلفة ؛ فقد أراد أن يليَ أمور المسلمين ، ليحقق نزعتـه ويشبع رغبته ، وليعدلَ في المسلمين ، فيردّ الأمور إلى حالتها الأولى ، ويقيم الأمر بالقسط ؛ فكأنه كان يبغي بذلك أمرَي الدنيا والآخرة معاً

ومهما يكن الداعي إلى طلبه الخلافة ، فإنه كان كفؤاً لها ، وقد واتتـه الفرصة ، التي لبث يترقبها زمَناً ، بموت يزيد وابنه معاوية الثاني ، ولم يبق في السفيانية من يقوى كاهـله للقيام باعباء الخلافة ؛ وحينئذ نرى عبد الله يُهمّ بالعمل الجريء ، فهو رجل الساعة ، والظروف المهيَّأة تنتظر منه الوثوب والظهور ، وقد كان ذلك ؛ إذ دعا لنفسه على منبر الحجاز سنة ٦٤ هـ ، ولم تلبث الدعوة الجديدة أن سرت في أنحاء العالم الاسلامي ؛ فخطب له على كافة المنابر (بالعراق وخراسان والحجاز والشام) سوى بعض جهات بالشام كان هواها ما يزال أموياً

وهنا تقوم عقبة شاقة أمام الخليفة الجديد ؛ فأهل الشام الذين لم يبايعوا قد أخذتهم نعرة العصبية لبلدهم ، فيمشي بعضهم إلى بعض ، وفيهم الرؤساء والقواد يتشاورون ويقلّبون الأمر على كافة وجوهه ، حتى لا يُفلتَ الملكُ من أيديهم ، ولا يخرج السلطان من بلدهم ؛ ثم يُسفر اجتماعُهم وتشاورهم على أن يبايعوا مرْوان ، وإن لم يكن سفيانياً فانه أموي ؛ وهو بعدُ أرشدُ القوم وأحزمهم وخير من يُسند إليه هذا المنصب من أهل هذا البيت ، في مثل تلك الظروف ؛ ولكن الضحاكُ بن قيس ومعه جنده يعارض هذه البيعة بشدة ، يريد أن يتم الأمر لابن الزبير ، فتقع الحرب بين الفريقين بالشام ، وتلوح بشائر النصر للضحاك ، فيممد مروان الداهية إلى الحيلة « كما فعل معاوية مع علي سابقاً » ويطالب الهدنة ، ثم ينقض بجنده على جيش عدوه بغتة ، فيشتتهم ، ويقتل قائدَهم الضحاكَ (بمرج راهط) . وبهذه الهزيمة تنطفئ دعوة ابن الزبير بالشام ، وتقوم الراية المرْوانية تخفق في ربوعه

ولو أن الضحاك ساعده الحظ وانتصر في مرج راهط لتغير أمرُ الخلافة ، ولمحِيَت الدولة الأموية في أول عهـدها ، وانقلبت سلسلة التاريخ الاسلامي ، فرويت على غير وجهها الذي تُروى عليه اليوم

***

بعد هذه الموقعة أضحى للمسلمين خليفتان ؛ أحدُهما بالحجاز ، والثاني بدمشق ، ولكن مرْوان تعاجله المنيةُ بعد قليل ، فيلي الأمر من بعده ابنُـه عبد الملك سنة ٦٥ هـ . وكان عبد الملك حازماً

وفيه صرامةٌ، وله عزيمةٌ ورأى سديد، ولكنه مع هـذا كله نراه يتهيب ابنَ الزبير؛ لما ثبت له فى قلوب الناس من المكانة، ولأن كثرة الأقطار الاسلامية تؤيدُهُ. فكَّر عبد الملك فى الأمر طويلاً، ثم طفق يُعد للحرب عدَّتها، فأخذ يحشد الجنود، ويعرضها بنفسه، وصمم أن يحسمَ هـذه المشكلة الخطيرة التى بينه وبين منافسه؛ فيحسن بنا أن نتركه قليلاً يستقرّ فى منصبه الجديد، وينظم جيوشه، ويَرَى رأيه، لننظرَ ماذا يفعل الخليفة الآخر مع الوفود التى كانت تأتيه من أنحاء البلدان وأقاصى الأمصار، لتُقرَّ بخلافته، وتجدّدَ بيعته، وتطلب منه العطاء وتظهر له حسنَ استعدادها لنُصرته وتأييده، ولنرى فى الجملة سياسته مع جنده الذين هم عماد خلافته وسندُ دعوته

جاءه مصعب أخوه بجماعة من أعيان أهل العراق، بعد أن مهَّدها، وملك زمامها، وخاطبه قائلاً: «لقد جئتُك بوجوه أهل العراق ورجالاتها، ليؤكدوا لك البيعة، وليأخذوا منك العطايا!» فيدعوه حرصه أن يمنعهم العطاء ويقول لأخيه: «إنما جئتني بعبيد أهل العراق، يستنزفون بيتَ المال؛ لوددت أن لى بهم صرفَ الدينار بالدرهم!!». وكان هذا الردّ طعنةً نجلاء أصابت قلوب أهل العراق، فزلزلت خلافته ولما تزلْ فى مهدها؛ وما فتىء يجرى على هذه السياسة، سياسة الحرص والشحّ بالمال، مع التأنيب والزجر، وعدم التشجيع بالكلمة الطيبة - ولقد بالغ فى تقتيره على الجنود أيما مبالغة، فكان أحياناً يقتصر على إطعامهم التمر، مع التقتير فى صَرفه لهم، فاذافرُّوا أنَّبهم بقوله: «أكلتم تمرى، وعصيتم أمرى!» حتى قال فيه شاعرُهم:

ألم تر عبد الله، والله غالب على أمره، يبغى الخلافةَ بالتمر!؟

وكان يدعوه حرصُه أن يقول: ماذا عسى أن أنتفع بالدنيا، وإنما بطني شبرٌ فى شبر؟ ويقول المسعودى: أظهر عبدُ الله الزهدَ وملازمةَ العبادة مع الحرص على الخلافة، وشبر بطنه. وليس من شك فى أن سياسة التقتير التى نهجها هى سياسة عاجزة، لا تنتج إلا الهزيمةَ وسقوطَ الدعوة، وضياعَ الأمر، فلا يسعُنا إلا أن نقول إن هـذا موطن ضعفٍ كبير، ما كان ليليقَ بطالب الخلافة، ولا سيما إذا وُجد أمامه مزاحماً قوياً، وخصماً عنيداً كعبد الملك بن مروان!! إذ كيف يبذل الجنودُ فى سبيله الدماء، ثم يضنّ عليهم بالعطاء؟ إن هى إلا الهزيمةُ الكبرى! وإذن فقد جني على عبد الله بخله، حيث صرف عنه القلوب، فتحولت الوجوه إلى الخليفة الآخر، يجدون فيه ملكا يكثر العطايا، ويكرم الوفود، ولا يُعزُّ الدرهمَ والدينار، بل يجود بالدنيا لتُقبل عليه الدنيا؛ اتجهت قلوبُ الناس إلى عبد الملك، وشخصت أبصارُهم إلى بريق نُضاره، فلما أنس بهذا، ووثق بضعف عدوّه من هـذه الناحية، توجَّه يقود جيشه الكبير إلى البصرة — وكانت لعبد الله مركز قوته، كما كانت الحجاز موطنَ دعوته — فلاقى بها أخاه مُصعباً، ودارت بينهما رحا الحرب، فقُتل مصعب، وهُزم جندُه، واستولى عبد الملك على العراق حصن الدعوة الزبيرية. وفى الحق أن عبد الملك ما قتل مصعباً، وإنما أرداه وهزم جيشه حرص أخيه على الدنيا، حرصاً نفر منه القلوب، فأسلمه أهل البصرة: وفروا إلى صفوف العدو، فقلّ ناصرُه، وراح ضحية التقتير وسوء التدبير

لم يبق بعد هـذا إلا أن يلتقى القرنان ويتصادم الجيشان بالحجاز. فلندع عبد الملك ينظم أمر العراق الذى دخل فى حوزته بعد النصر، ولنترك له فرصة يجهز فيها جيشاً آخر، تحت إمرة قائده الجبار الحجاج بن يوسف الثقفى، ليلاقى به عبد الله فى الحجاز. لندع كل هذا جانباً لنشاهدَ موقفَ بني هاشم من خلافة ابن الزبير، وما صنع هو معهم بالحجاز!

كان ابن عباس وابن الحنفية وغيرُهما يعلمون من قبلُ طموح عبد الله إلى الخلافة، وينكرون عليه فى أنفسهم، بل كانوا يستكثرون عليه ذلك، ويرون أنه ليس أحق منهم بالأمر (وإن كان أحقّ من مروان وابنه) وكانوا يرون أن الذى يدفعُه إلى هذا إنما هو الجشعُ والحرصُ على المظاهر الدنيوية (وقد ذكرنا حكاية البغلات الشهب عن ابن عمر وابن عباس) — لذلك لم يبايعوه، فحنق عليهم، وضيق خناقهم، حتى إنه فكر فى الخلاص منهم، فحبسهم فى شعب عارم، وجمع حولهم حطباً كثيراً، وهددهم بالاحراق، وكاد يقضى عليهم؛ ويقال إنه ما فعل هذا إلا خوفاً من تفرق الكلمة، واختلاف الناس، كما فعل عمر مع علىّ لما تأخر عن مبايعة أبى بكر، فقد هدده كثيراً

ولقد لجأ ابن الزبير إلى النفى عقاباً لمن تخلف عن بيعته،

فأخرج محمد بن الحنفية من مكة والمدينة ، ونفى ابنَ عباس إلى الطائف ، وبهذا العمل المداني مع بني هاشم ، واضطهاده لهم ، ضم سبباً جديداً قوياً إلى أسباب خذلانه ، وإفلات الأمر من يده ، فكان بذلك مجانباً الحزمَ والسياسةَ الرشيدةَ

* * *

ويسير الحجاج ذلك القائدُ العنيدُ إلى الحجاز ، فيستولى بعد مناوشات قليلة على جبل أبي قبيس الذى يُطلّ على مكة ثم يحاصرُ البلدَ الحرام ، فتتعطل مشاعرُ الحج ، حتى إنه هو وجنوده وقفوا بعرفات ولم يطوفوا بالبيت ذلك العام ، وطاف عبد الله ومن معه بالبيت ولم يقفوا بعرفات ؛ وطال الحصار حتى سئم أهلُ مكة ؛ ويقول الطبرى إن الحجاج حصره ثمانية شهور ، ولم تزل الحرب بينهما حتى تفرّق عنه عامةُ أصحابه ، وخرج أهل مكة إلى الحجاج بأمان ، ولم يصبر مع ابن الزبير سوى نفرٍ قليل ممن بايعوه على الموت دونه

وفى يوم عصيب ، من أيام الحصار الرهيب ، يدخل عبد الله على أمه أسماء ، فيدور بينه وبينها حوار رائع ، يعرض عليها حاله وما آل إليه أمرُ أصحابه ، ويطلب مشورتَها ، فتبذل له النصح ، وتحثه على الاستمساك بما ولاّه المسلمون ، وأن يدافع عن حقه إلى آخر قطرة من دمه ، وألاّ يقبلَ من عدوه خطة يصحبها الذلُّ ، وتقول له فى عبارة حماسية مؤثرة : « والله يا بنيّ لضربةُ سيفٍ فى عزّ ، خيرٌ من ضربةِ سوطٍ فى مذلة » وتُلهبه هذه النصيحة ، وتثير نخوته ، فيخرج إلى العدوّ فى قلةٍ من صحبه ، وفى كثيرٍ من جَلَدِه وإيمانه ، وقوةِ عزمه ؛ وحينئذ نقرأ فى جهاده واستبساله أروع صفحة للبطولة الكريمة ، والدفاع عن الحقّ المهضم ، صفحة يتجلى فيها البلاءُ الحسن ، والصبرُ الجميل والاعتمادُ على قوة اليقين ، مع ضعف العُدّةِ والعدد ، ووفرةِ العدوّ وإحاطته ، وتمكنه من ناصية الموقف . ملك الحجاجُ عليه أبوابَ المسجد الحرام ، وحاصره فيه ، فبات يصلى ليلته ، ثم أغفى قليلاً ، وقام يصلى الفجر ، ولما انفتل من صلاته أخذ يستعدّ للنزال ليرمىَ آخرَ سهم فى كنانته ، وليموت بعده شهيدَ الوفاء لمبدئه ، ثم قال لمن معه : « يا آل الزبير ! لو طبتم لى نفساً عن أنفسكم كنا أهلَ بيتٍ من العرب ! أما بعد فلا يرُعْكم وقعُ السيوف . . . غضوا الأبصار عن البارقة ، ولا يُلهينّكم السؤالُ عنى ، فلا يقولنّ أحدُكم أين عبدُ الله ! . . . ألا مَن كان سائلاً عنى فأنى فى الرعيل الأول ، احملوا على بركة الله . . »

وبعد أن بثّ الحميّةَ فى قلوب من حوله ، وألهبهم حماسة ، حمل على عدوّه بسيفين صارمَين ، يضرب بهما معاً ، فيهزم الداخلين عليه من هذا الباب ، ثم لا يلبث أن يتكاثر الهاجمون على الباب الآخر ، فيصمد لهم ، حتى يولوا الأدبار ، فيوقعَ بهم ، وهو يقول: « ياله من نصرٍ ، لو كان له رجالٌ !! »

لو كان قرنى واحداً أرديتُه أوردتُه الموتَ وقد ذكيتُه !

ولم يزل يضربُ القوم بصارميه ويشتت شملهم ، حتى قُذف بحجرٍ ضخم أصابه بين عينيه فخرّ صريعاً ، وتكاثر الجندُ على البطل المضرّج بدمه الحرام ، فى المسجد الحرام ، واحتزّوا رأسَه ولم يرعَوا فيه ديناً ولا رحماً

وكان مصرع البطل الشهيد سنة ٧٣ هـ بعد أن أدرك وطره وسلّم الناسُ عليه بالخلافة زهاءَ تسع سنواتٍ ، كانت كلُّها خطباً واستعداداً ، وحرباً وجهاداً

* * *

وبعد فهذا بطل صنديد ، وخليفة شهيد ، نرى فى طلبه الخلافةَ ، وتعريض نفسه للمخاطر ، إبان تلك الظروف العصيبة حدباً على المسلمين ، وأنفة أن يُساموا الخسفَ من بنى أمية ، ونوعاً من التضحية فى سبيل الجماعة ، كما نلمحُ فى نفسه نزعةً سامية ، وشرفاً وشجاعة ، لا نجدُها فى كثير من رجالات عصره ، فلقد كان هو رجل الوقت بلا منازع ، لم يتوقع بنو أمية الوثوب الظافر عليهم من غيره ؛ ولقد صدقت فيه فراسة معاوية

والحق أن خلال عبد الله منذ تنشئته كانت ترشحه وتمده للخلافة ، ولكن لأية خلافة ؟ للخلافة المتقشفة الحريصة على أموال المسلمين أن تنفق فى غير وجهها ، لا تلك الخلافة المترفة التى تنغمس فى النعيم ، وتغمرُها أبهةُ الملك ومظاهرُ السلطان ؛ ولو لم يرنُ عبدُ الله بطرفه إلى هذا المركز السامى ، لكان ذلك غريباً عن طبعه ، مناقضاً لنشأته ، وعلو همته وطموحه ؛ فلنسجل له ثورته المنيفة الدامية على من طلبوا الملك والدنيا باسم الخلافة الاسلامية المتيدة

(ميت غمر) محمد حسنى عبد الرحمن

نحو الفجـــر

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

المقـدمة :

إن الذى يأمل للانسانية فجراً تنجاب فيه ظلمة الضيم والشر ، يرى فى فجر كل نهار رمزاً له ووعداً به ؛ فيتعلل بهذا الرمز وينتظر إنجاز الوعد آملا أن النومة التى يحدث فيها للانسانية كابوس من الأضغان والأذى والتنابذ والكيد ، والاستهتار فى العبث بالحق ، يكون فيها أيضاً نسيان لخصالها الوضيعة يدركها من طريق سنة النوم فتستيقظ فى خلق الحق والخير (الناظم)

* * *

أرقتُ فطال الليل أم طال بى عمرى   كأن انجياب الليل فى موعد الحشر
كأنِىَ فى لج من الليل غارق   سوى هدأة لم تُلْفَ فى لجج البحر
كأنى غريب من حراك لواعجى   بعالَمِ صمت غاله الصمت من سِحْر
كأن غصون الدوح فى حندس الدجا   رءوس ثكالى أرسلت أسود الشَّعر
كأن النجومَ الغانياتُ تَرَهَّبَتْ   تبيت طوال الليل تعبد فى دير
أو الفلُّ مزروعاً بحقل بنفسج   وكاللازورد الأفق رُصِّع بالدر
أو أنَّ ثقوباً فى جدار زبرجد   تَطَلَّعُ منها الغيدُ يشرِفن من خدر
أُقَلِّب طرفى بينها مُتَفَهِّماً   تَفَهُّمَ معنى اللفظ فى صفحة السِّفر
كأن الدجا دَيْرٌ به البدر راهب   جميل المُحَيَّا حوله هالة الحبر
كأن صقيعاً قد كسا الأرضَ نورُه   أو أن عليها أبيض الطُهر مايُزرى
كأن فراشاً أبيضاً مَدَّ نُورُه   مهاداً لروح أو شبا كامن السحر
أما يذهل الراؤون من سحر ضوئه ..
وقد تحسب الأحلام تسرى وما تسرى
وإن تكُ أحلام فأوهام خاشع   عراه جلال الحسن فى الليل والبدر
أيحلم هذا الدوح فى سحر ضوئه   فقد خلته من هدأة النوم فى أسر
كأن حفيف الدوح أضغاث حالم   أو أنَّ حديثاً بينه خافت السر
أدور بعينى لا أرى غير ساكن   فأين احتيال الناس بالغدر والمكر
وأين نشاط القوم للهو والهوى   وأين مساعى الناس فى الخير والشر
ألا ليت نسياناً كذا النوم ساقياً   يدير لهم كأساً ألذ من الخمر
لتذهلهم عن كل شر وفتنة   فيستيقظ النُّوَّامُ فى خلق الطهر
خواطر آمال أُسَلِّى بها الدجا   وتمضى مُضِىَّ الليل أو طيرةَ الطير
فلما تَقَضَّى الليل وانجاب جنحه   رأيت صباحاً يصبغ النبت بالتبر
تَشُوب اخْضِرارَ الروض صفرةُ ساطع
من الضوء مثل الغيد فى حلل خُضْر
كما تينع الأثمار شاب اخضرارَها   لدى النضج لونٌ فى غلائلها الصُّفْر
كأن نبات الزهر من نبت جنة   رمى مَلَكٌ من أفقها الأرض بالبذر
أظل وطرفى فى مدى الأفق ذاهل   أحاك عليه الفجر وشياً من السحر
ويرنو إلىَّ الفجر من خلف ظلمة   بنور كما شَفَّ الرمادُ عن الجمر
كأن مَماتاً فى الدجا أهلك الدُّنا   فتبعث فيها الروح فى وضح الفجر
كأن كيان الكون يخلق ثانياً   فإن انفجار الفجر كالخلق والنشر
تخال تباشير الصباح أزاهرا   اذا ما بدت فوق الشجيرات كالنَّوْرِ
فيختلط الزهران حسناً ومنظراً
ويزداد نِظْرُ الحسن من مشهد النِّظْرِ
تحَدِّث أنباء السماء بمشرق   من الضوء مثل الرُّسْل تُبْعَثُ بالخير
تبادهنا منها محاسن جمة   كما بادهَ الأذهان من حَسَنِ الفكر
تفض ختام النفس عن كل ذكرة   وكم ذِكَرٍ فى الضوء والزهر والعطر
تذكرنا الآمال والحب والصِّبَى   كأن رواء الصبح ضرب من الشِّعر
كذلك يغدو منظر الحسن ذكرة   وخاطرة فى النفس تُسعِدُ فى الفُكْر
وتستيقظ الأرض النَّؤُوم إذا حنا الصـ   ـباح عليها يلمس الثغر بالثغر
كما استيقظ الطرف المُغَمَّضُ بعدما   أريق عليه ساطع من سنا البدر
تحن اليه النفس من بعد ظلمة   فتحكى حنين الطير تهفو إلى الوكر
ترى الصبح يجلو النهر كالقين سيفه   ويذكى الندى فوق الشجيرات كالدر
أُطِلُّ بأفكارى على النهر مثلما   لدُنْ هدأة يحنو النبات على النهر
تصب عليه الشمس رقراق عسجد   فيعلو لجينَ النهر نهرٌ من التبْر
ترى تارة فى متنه الماء راجفاً   كما ارتعدت أبشار غِيدٍ من القُرِّ
وتحسب أن النهر يشعر بالذى   يعالج من حالَيْه فى القر والحر
ترى النهر مثل العين سحراً وبهجة   ويُمْلأ مثل العين بالصُورِ الكُثْرِ
يبوح بسر الحسن لونٌ مجدد   ولولاه ما ألفيت فى الكون ما يُغرى
وأروعه ما كان منه فجاءةً   فجاءة صبغ النهر من سُحُب حُمْر
وليس رواء الكون فى الصيف وحده   فرب شتاء ناثر أيُما ذُخر
جلال يريح النفس من بعد رونق   نصيبك من سحرين فى الحر والقر
على أن ذكرى الصيف فيه جلية
ففى النهر من ذِكرٍ وفى الروض من ذكر

المثل الأعلى فى السينما — حياة عبقرية متألمة

اللحن الذى لم يتم

Symphonie inachevée

للأستاذ خليل هنداوى

— ١ —

قد يكون الاقبال على هذا الفلم الناطق بالألمانية ضعيفاً ، لأن مخرجه لم يترك مجالاً للمادة تعبث بالفن ، وللمصلحة تغلب على العاطفة ، وللعبث تسطو يداه على « مثل أعلى » ألفته عبقرية — أقامت فى الأرض عمرها — بمداد روحها ودماء قلبها . على أن هـذه الحياة قد فسدت ، ولم يبق خالصاً ظاهرها ولا باطنها ، فالقوم قد لجوا من صراع المادة المستحوذة عليهم ، وهم الذين تركوا لها مجال التسيطر ، تفر المادة منهم ، وهم إليها يفرون ! وقد آل بهم هذا الصراع الدائم إلى أن يعموا عن جوهر الحياة الذى وضعته الحياة على أبنائها يوم كانت ، فهم من صراع إلى صراع ، ومن نزاع إلى نزاع ، لا ترتاح لهم جنوب ولا تستقر مضاجع . أحلامهم طافحة بالعراك كيقظاتهم ، وليت شعرى لِمَ هذا العراك ، وليت فيه هذا النزوع إلى محجة الحياة ، فهم مضطرون إلى تهـدئة أعصابهم المجنونة وقلوبهم الثائرة باللهو واللعب ، يطلبون اللهو متى انتهوا من جدهم ، ويتوخون العبث متى خرجوا من دائرة عملهم . لهو كثير وُجد كثير تذوب بينهما حياة شفافة فى سبيل الحياة البهيمية ! وقد شعرت السينما بتعب الانسانية وأحست بضناها ، فأحبت أن تسعفها فى جهادها ، وتريها ومضـات تلمع وتخبو فى جنبات « الشاشة البيضاء » . فهى تتشبث بالألحان والحسان ومظاهر الخيال الذى لا ينطبق على حقيقة ، لتفرّج عن هذه الانسانية المنكوبة ، ولـكنه دواء من ينقش الشوكة بشوكة ، ويُنير للشمعة سـبيلها بذوبها . لأن مثل هذه الألحان المضطربة والنجوم الساطعة الخابية سرعان ماتفقد تأثيرها لأنها لم تصب هدفاً معلوماً ولم تطرق نهجاً مرسوماً

قد تـكون السينما للأدب حليفة وقد تـكون عدوة ، لأنها تريد أن تهضم « الأدب » وتبلع زاد العقل لتحمله للناظر عن طريق العين ، فهى مساعدة للأدب على خلق « المثل الأعلى » ؛ وباعثـة فى الأرواح مختلف الأشواق والحنين إلى ربوع « المثل الأعلى » ، ولـكن من المخرجين من لا يبالى بهذا المثل ولا يسمع صوته ، لأنه يريد أن يقبض على عيون الناس وجيوبهم ، وهذا هو الأديب التاجر ، ومنهم من يؤمن بهذا المثل ، ولـكنه لايجد الفرصة سانحة لمثل هـذا النوع . فهو يُلقى الومضة إثر الومضة لأنه لايقدر أن يتبرأ من كل ما يجيش فى صدره ، ولـكن أكثر بضاعته بضاعة يرضى بها رؤساءه . ورؤساؤه يعرضونها ليكسبوا بها جنوداً ونقوداً ، وهـذا هو البائس المدارى ، ومنهم من بلغ إيمانه بالمثل الأعلى مبلغاً عظيماً ، يخرج من الروايات ما تؤمن به روحه ، ويخلق فيها شيئاً جديداً متدفقاً لأنه يعمل بقلبه لابيده ، وهذا هو من يشفق على هذه الانسانية ، ويريد أن يحملها على أجنحة صوره وألحانه — ولو ساعة — إلى عالم المثـل الأعلى ؛ يريها ما هنـالك من نور طافح وأمل خافق . والجالس إلى أفلام هذا المخرج ليجد نفسه وقد انساخت عنه بغير شـعور منه إلى عالم شعرى بعيد ، ما كان حامله إليه إلا فـكرة سامية نقلتها أشعة العين إلى القلب فهام واستُهيم . . . إن مثل هذا المخرج يعطى أكثر مما يأخذ ، ويهمه من الناس قلوبهم قبل جيوبهم

مرّت بى هذه الخطرات وازّاحمت فى نفسى يوم رنت عيناى وخشع قلبى لهذا (اللحن الذى لم يتم) أراه للمرة الثانية ، وقد تجردت روحى عني لتتسامى فى هذا اللحن ماشاء لها التسامى

— ٢ —

هذا اللحن أو هـذا (الفيلم) ترجمة دقيقة لفصل من حياة « شوبير » الموسيقى النمساوى الذى لم تفض عليه الحياة أجله .

وقد يحلم المحروم باليسر واللهى — كذلك حلم الأرض بالصيف واليسر

فلمـا تقضى الليــــل يحدو لواعجى

وذكرى طيور الصيف تهزج فى صدرى

أخذت نصيباً من جَدَى الفجر وافراً

فنهنهت آلامى وأرخيت من صبرى

وأملت للدنيا صـباحاً مؤجلا — سيكشف عنها ظلمة الضيم والشر

فـكل صـباح رمزه ومثاله — ووعد به يحدو الى الزمن النضر

نسر بنعماه وإن لم تكن لنا — وننشده فيما يكون من الدهر

عبد الرحمن شكرى

(١٧٩٧ — ١٨٢٨) لـكنه فصل مشحون بكل ما يتمثله فـكر عن فنان . وسأعرض عليك هذا الفصل لتتلمس فيـه هذا المثل الأعلى الذي نجح المخرج في إظهاره . وإنما هو حياة فنان يشق طريقه إلى المجد بأوتار قيثارته وأنامل « بيانه » البيضاء ، وتاريخ صراع هذا العبقري للمصادفات والأقدار التي انتصر عليها

نحن الآن في منزل « رهون » تجتمع فيـه البذلة الثمينة بجوار تمثال « نابوليون » والقيثارة الجريح بقرب الحسون في قفصه « رهين المحبسين ! » تتسلم هذه الأشياء فتاة جميلة ، لامعة العينين ، لا تقدر قيمة الأشياء إلا بحسب قائمة عندها

يطل على النافذة فتى تـكاد تيبس عضلات وجهه المتصلب ، على عينيه نظارتان ، بيده قيثارته التي طالما ملأت لياليـه ألحاناً ، وأشبعت وحدته أماناً ، يقدمها بيد مرتعشة ليرهنها ، يجـد ثمن الرهن ضئيلاً فيراجع الفتاة الجالسة فتجيبه : هذا هو الثمن المحدد ! ولـكن صوتاً يُهيب بها في داخلها ، وإنما هو صوت الحنان على الفن الذبيح . . . فتزيد الثمن وتدعو الله أن يذهل والدها عما زادت ، ليتسنى لصاحب القيثارة أن ينتفع ببدل قيثارته . فيأخذ الثمن ويحصيه بعد خروجه فيجده أكثر مما قالت ، فيعود بقلبه البسيط ، فيعثر بالفتاة خارجة وتخبره أنها شذت معه إكراماً لفنه ؛ وإذ يسمع ــ شوبير ــ ألحاناً تأتي من بعيد فينطلق وراءها وهي تقودها إليـه عاطفة غريبة ، فتسأله سر ابتهاجه بهذه الألحان ، فينبئها أنها ألحانه يرددها الصبايا الحانيات على الماء

ــ إن ألحانك ترددها « ڤينا » ؟

ــ أجل ! ترددها « ڤينا »

ــ أنت سعيد إذاً يا شوبير ! ولا بد أنك غني

ــ أما الغنى فلا

ــ ولماذا تثابر إذن على التلحين ؟

ــ وما يكون عمل شوبير في الوجود إذا انصرف عن التلحين؟

ــ وهذه الأبيات الرقيقة التي أسمعها أهي من « جيته » ؟

ــ لا !. ومن هو جيته ؟ إنني لم أسمع به قبل اليوم

ــ إنها من نظم صديقي « موللر »

ــ عجيب ، ألا تعرف « جيته » ؟

وهنا يعودان على آثارهما فتثب إلى غرفتها وتقذف له على طريقه بديوان (لجيته) فيأخذ الـكتاب ، ويلتهم ما في الـكتاب ويتلو ذاهلا غافلا ؛ يخطر في الشـوارع وعيناه شاخصتان في الـكتاب ، ويدخل قاعة الدرس وطلابه في حرب يعلنها بعضهم على بعض ، سلاحها الأوراق والـكتب وإهراق المـداد ! وقد تصيب دواة قبعته فتطير عن رأسـه فلا يشعر : ولـكنه لا يكاد يستقر في مكانه حتى تهدأ الجلبة وتقر الحركة ، فيعجبه هذا السكون ويشكر طلابه عليه ، فيبدأ درس الحساب ويكتب على اللوح الأسود بادئاً بجدول الضرب ، ولـكن هذه اليد تتحرك بغير وعي وتنتقل بغير إرادة . لأن القلب الموسيقي الذي أطل عليه من وراء « جيته » قد استولى عليه ، فيده تسطر وقلبه يلحّن ، وما هي إلا لحظة حتى كان الطلاب من ورائه يرددون اللحن الذي سطره ! وإذا بدرس الحساب يتحول إلى درس موسيقى ! فيسمع الرئيس الألحان شائعة في الفناء ، فيطرق غرفة « شوبير » فيجده لاهياً وطلابه بهذه الأغنية ، فيطلب إليه أن يهرع إلى مقابلته ، ولـكن هذه المقابلة التي يتخيلها الناظر عثور جد وسوء طالع ، قد هيأت لشوبير أن يقابل « مدير الأوبرا » في « ڤينا » المعجب ببراعته ، وهو ينتظره في بهو الرئيس يحمل إليه دعوة إلى منزل الـكونتس « دي رنسكي » ليعزف في إحدى سهراتها الموسيقية الحافلة التي تقيمها كل خميس وتجعل من منزلها ملتقى أرباب الفن وأنصاره . وجدير بمثل هـذه المقابلة أن تفتح أمام « شوبير » مستقبلا زاهياً مضموناً . ولكن أنى له أن يغشى هذه الحفلة وليس عنده رداؤها . وقد طرق بيت الرهون فرده صاحبه خائباً ، لأنه لا يملك ما يفك به رهينة ، ولـكن الفتاة الهائمة بفنه أعادت إليه رداءه وقبعته لتحقق له ظفره في هذه الليلة

كان بهو « الـكونتس » يعج بالزائرين والزائرات ممن سما بأرواحهم الفن والموسيقى ؛ وفجأة دخل « شوبير » منتفخ الرداء ساطع الوجه ، يلمس غده بيده . ولـكن نشوة السرور قد أذهلته عن أن ينزع (علامة الرهن) عن ظهر الرداء . فمر وعيون القوم رانية إليه ، تتغامز عليه . فقبل يد الـكونتس وحطم بخيط «العلامة» تمثالاً عزيزاً علـق به ، ولـكن الـكونتس لم تزد إلا ترحيباً به

جاء دور « شوبير » ومرت أنامله على « البيان » يعزف أنشودة أبدعها لمثل هـــذه الساعة . وأودعها كل ما يختلج في صدره من أماني وأشجان . فترى القوم سكارى وما هم بسكارى ! فتدخل — خلال ذلك — الـكونتة استركاز الفتاة الحسناء وهي متأخرة ، فتأخذ مقعدها وتصغي بروحها المرحة إلى هـذه النغمات ، فتسأل فتاها فيجيب همساً : انه « شوبير » فلا تفهم .

فيكتب على صفحة مرآتها بعد ذر « البودرة » أحرف « ش و ب ى ر » فلا تفهم ... وتنفخ على اسمه فيطير . ولكن أوضاع جلوس شوبير على البيان تهيب بها إلى الضحك فتملك نفسها فلا تقدر ، فترسلها ضحكات عالية تنال من عزة « شوبير » فيرمقها شزراً ، ويغلق البيان بعنف ، ويهب من مقعده لا يملك نفسه المهتاجة ، فيدركه « مدير الأوبرا » فيجيبه بإباء وأنفة :

— أنا لست ممن يعزفون وهم يضحكون !

وانطلق وقد ترك فى المنزل ، زوبعة ، وصاحبة المنزل تقول للفتاة « ومما يؤسف له أن المقطوعة لا تبعث على الضحك »

تلك عزة الفن دعته فأجاب ، وهو يقدر أنه قاتل مستقبله ، وداع البؤس إلى ساحته ، ولكن ما همه مستقبله وبغناه إذا كان الفن يحيا فى منزله مهاناً ويرضى بهوانه ؟ أليس هذا المثل يضرب لكل فنان معنى العزة ويبعث فيه الكبرياء ؟

خرج « شوبير » دامى القلب ، ولكنه عنيف الثورة شديد النقمة على هذه الغادة التى حالت بينه وبين اتمام لحنه . . . آب إلى غرفته بأمانيه المهزومة كالقائد المنكسر يعود بفلول جيشه وأوسمته القديمة ، فألفى غادته الأولى فى انتظاره ، وهى لم تكن لتحب أن تراه مقطباً عابساً ، جلس إلى البيان يعاود ذلك اللحن الطائر ، فلا يكاد يشرف على المهوى الذى تعالت فيه ضحكة الساخرة ، حتى يتمثل أن ضحكتها تملأ جو غرفته ، فيهب مذعوراً يسد أذنيه ، وكأن يداً سحرية تحول بينه وبين الانتقال إلى المهوى الثانى . وبعد محاولة غير مجدية غادر البيان والبيان يضحك ، وجدران الغرفة تضحك ، وهى فى قرارة ضميره تضحك . . .

كلفه هذا الحادث كثيراً ، فقد أخرجوه من المدرسة ، وحرموه الخبز الذى يأكله ، فألحف الدائنون فى الطلب ، ولج الأصدقاء فى الهرب . وشفعت له « فتاته ايمى » عند « مدير الأوبرا » ولكن هذا قد قُدَّ قلبه من جماد !

ـ كن لطيفاً معه

ـ أنا لستُ بلطيف

ـ لا تهجر شوبير !

ـ إنه يستحق

ـ ولكن اذكر أن « ڤينا » تترنم بأغانيه ، فأين أغانيك ؟

بمثل هذه البساطة وهذه الحدة كانت تجادل « ايمى » مدير الأوبرا لاستمالته إلى معاضدة « شوبير » ، ولكن العبقرية كتب عليها القدر ألا تخط طريقها إلا بدماء القلب الجريح ، والشقاء الدائم ، فليمش « شوبير » على طريق العبقرية . . .

— ٣ —

طلب أحد الأمراء الموسرين فى « هونغاريا » إلى شوبير أن يقدم عليه ليعلم فتاتيه الموسيقى ، فارتاح لهذا الطلب وأيقن أن الأمل طفق يبسم له ، فودع « ايمى » ووعدها بأن يكاتبها وسار وراء الأمل الجديد

دخل المنزل فاستقبله الوالد بابنتيه «ماريا وكارولين» . نظر شوبير فى وجه « كارولين » فأدرك أن هذا الوجه هو وجه الساخرة ، فاربدّ وجهه وتقلصت شفتاه . ولكنه هدأ نفسه وكظم غيظه . وغادر الوالد المكان ، وعدت وراءه « ماريا » لأنها لا رغبة لها فى الموسيقى ، وخلا له ولها المكان

قالت كارولين باسمة :

ـ أريد أن أعرفك ، لأنني جعلتُ درس الموسيقى سبباً !

ـ أتودين أن تسخرى منى أيضاً ؟

ـ لا يا شوبير ! أريد منك أن تغلق هذا البيان

فدنا شوبير من البيان وأغلقه بهدوء ، فضحكت كارولين وقالت :

ـ فى امكان الانسان أن يغلقه بدون ضوضاء ! قد شعرت بخطيئتى العظمى ، وانى لأرجو أن تصفح عنى . . .

ـ قد صفحتُ !

ـ إذاً سنبدأ غداً . . .

وفى اليوم الثانى كان « شوبير » يلقى على تلميذته قواعد فى الموسيقى وفى الايقاع ، ويبدى لها أن الايقاع هو حياة الموسيقى وأصل توازن ألحانها ؛ ويعرض عليها مقطوعة صغيرة له تتلوها بصوت عال ، فتتلو السطر الأول والثانى ثم يتعالى صوتها شادية مرنمة يتلاشى أمام نغماتها ونبراتها عزف البيان ولحن القيثار ، فيذهل شوبير وأى ذهول ! ويتصاغر أمام جلال هذا اللحن المتناسق ؛ حتى انتهت من تلاوتها وجاءت على هذه الكلمة « وهى مقطوعة مهداة إلى الفتاة ايمى » فثارت فى نفسها غيرة عميقة ، لأنها كانت تشعر بأن هذا الفنان يجب أن يكون لها وحدها ، فطلبت إليه أن يقدم لها فى المرة الثانية من أغانيه مالا تشركها فيها امرأة ! ولتكن تلك الأغنية التى لم تكمل . . . ولكن هذه الأغنية ظلت غير تامة لأنه لم يستطع أن يتمها

قالت له كارولين فى إحدى خلواتها :

ـ سمعت بأنك تختلط بعمالنا فى المزرعة فى جلسات طربهم وإنى لأربأ بأستاذى أن يغشى هذه المجامع الساقطة

ولكن شوبير كان يستوحى الفن حيثما كان ، ويعتقد أن الفن يسكن فى الأكواخ ، وفى الجماعات المنحطة ، وفى التراب . وظل يغشاها كعادته ، حتى فجأته يوماً فى مجلس لهؤلاء « الغجريين » الذين تخذوا الحياة عزفاً وطرباً ، وقذفوا بهمومها من وراء ظهورهم . فجأته وهى ترتدى رداء « الغجريات » وعلى وجهها تطفو بهجتهن وسرورهن . فرقصت حتى بات المكان كله لا يتسع إلا لقدميها . رقصت حتى أعيت ، ودنت منه تنشد مقطوعة رقيقة تدعو إلى الاستسلام الذى تولده الغبطة الكئيبة :

« قل انك تحبني ؛ قل بدون انقطاع
قل أنك تحبني قليلاً . . .
كلماتك هذه تبعث الغبطة فى نفسى ، والراحة فى قلبى
عيناك هما السبيل الجميل حيث يتوارى حلمى
قل انك تحبني ، واكذب إذا وجب الكذب . . .
قل ذلك . . . لأنك — إذا سكتّ — تسلمني إلى الموت »

وجدير بمثل هذه الأغنية الرقيقة أن تذهلها عن نفسها ، وأن تغيب أستاذها عن وعيه . فيلثم يدها ، والزوبعة لا يزال هزيمها بين الأغصان . فغادرت المكان راكضة بين المروج الذهبية التى هى قبلة العشاق ، ومرتجى أصحاب الوحدة ، فتبعها ليرجع إليها نقابها

ـ قفى يا كارولين . . . لقد نسيت نقابك . ما عسى يقولون فى القصر اذا عرفوا ؟ لماذا جئت ؟

ـ ألا تعرف أنت حتى الآن . . عانقنى يا شوبير !

وهنا ضمهما قبلة عميقة لم تشهدها إلا السماء . ولم تسمع همسها إلا الأزهار والأعشاب . . . . أذهلتها عن نقابها الذى سقط على الأرض فمادت بغير نقاب

— ٤ —

أدرك الأمر والدها ، ورأى فى فتاته ميلاً إليه قد ينتهى بالزواج . فأحب أن يحول بينهما ، فصرف « شوبير » صرفاً أدبياً ليعود إلى عزلته الأولى . وشوبير فى كل غيبته لم يذكر « إيمى » بكتاب . لأن كفة « كارولين » رجحت على كفتها . فلم تستقبله « إيمى » ولكنها سمعت أنه يكاد يغدو مجنوناً . وهو فى كل يوم يرتقب كتاباً من « كارولين » وها قد دب اليأس فى نفسه بعد انتظار ثلاثة أشهر ، وها قد أشفقت « إيمى » عليه فهرعت إليه بدون إرادة ولا عزيمة . . . . وفى لحظة حضورها وردت عليه بطاقة من القصر تأمره بالحضور العاجل . فما قابل « إيمى » إلا ليودعها وتودعه

ـ إيمى ! كونى سعيدة إننى مسافر ، سوف أبعث إليك بأنبائى

انطلق « شوبير » ولا يعرف ما كُتب له . فشاهد فى القرية حالة غير معهودة ؛ أجراس تدق ، وثياب بيضاء ترف . وأغانٍ تتعالى . إنه عرس « كارولين » أجئتَ يا شوبير لتودع كارولين ؟

لم يكن صاحب البطاقة المرسلة إلا « ماريا » أخت « كارولين » دعت « شوبير » ليحضر حفلة زفاف أختها . وليصفح عنها لأنها كفّرت عن وزرها بالبكاء الطويل ، ولكنها أذعنت لوالدها مضطرة غير مختارة . . . وقد وقف « شوبير » بين الجموع يشهد سرورها أمامه

وقفت « ماريا » فجأة بين جموع المهنئين فى بهو القصر ، تعلن أن « شوبير » يريد أن يهنئ العروسين « فدخل شوبير وقد رنت العيون إليه ، ومشى حتى بلغ موقف « كارولين » وقال لها : « يا سيدتى ! هل تتفضلين بأن أقدم تتمة اللحن الذى لم يتم تقدمة لك فى يوم عرسك ؟ » واختلف إلى البيان يردد اللحن الأول « وكارولين » بين الجموع تنتفض طوراً وتختلج تارة تحت تأثير الذكريات الهافية حولها . تفيض على قلبها مرارة ، وعلى محجريها تطفح دمعتان . وما كاد ينتقل « شوبير » إلى تتمة المقطع ، وقد اختلفت النغمة ، وامتزج الجلال بالجمال ، ونطقت العاطفة ، وغلب القلب على الأنامل ، حتى سقطت « كارولين » مستخرطة فى البكاء فى الموقع الذى قاطعت شوبير بضحكتها . فانفض الجمع وأخذوا المريضة . وشوبير مسمَّر فى مكانه لا يتزحزح . وبعد برهة عاد إليه زوجها يقول له : « إنها تحسنت قليلا وتود أن تقابلك » . عادت كارولين ووجهها مقنع بكل ما رسمت على وجهها الحياة منذ طفولتها حتى الساعة . فالآمال مجاورة للآلام . واليأس مؤتلف مع القنوط : إنه وجه حياة كاملة

ـ شوبير ! هذه مقطوعتك أرسلها إلىّ

ـ ولِمَه ؟ إنها مكتوبة للجميع

ـ عش سعيداً يا شوبير ! ولا تحزن . إنك تملك شيئاً هو اسمى من كل شىء . . . هو الفن الذى يعطيك الخلود

طفرت من عينها دمعة ، وانصرفت راكضة لأنها لا تستطيع أن تقف أمام هذه السحابة الجارفة التى يسوقها فن عميق سامٍ جارف

عاد « شوبير » إلى لحنــه ، فأبقى ما عزفه ، ومزق تتمة اللحن ، وكتب حول ما مزقه : « ليكون دليلاً على حبي الذي لا ينتهي ، جعلتُه لحناً لا ينتهي » . وخرج « شوبير » يسلك الطريق الذي أبصر أحلامه الواثبة ، والآن يبصر نفسه المكتئبة ؛ وما زال يقذف به السير حتى وقف على تمثال « مريم العذراء » وهنالك تمازج كل ما فيه من عوامل متضادة ، من يأس ورجاء . من غبطة وكآبة ، وفن ومثل اسمى ، لتؤلف هـذه العوامل «أنشودته السلام الملائكى» التى خلدت شوبير فى عالم الموسيقى ..

« السلام الملائكى[1] »

سلام عليك يا مريم ! يا ملكة السماء
إليك ترتفع صلاتى ، وأرى العطف فى عينيك
وفيك أيتها الطاهرة أضع رجائى

* * *

ولدى كان مخفف بؤسى ، ومعزى فاقتى
إنه تألم ، وا أسفاه ، إنه قضى
افهمى دموعى أنتِ ، يا من كنتِ أماً
وأعيدى إلىّ طفلى البائس . . .

* * *

سلام عليك يا مريم ! إن ولدى جميل
كنتُ به مختالة معجبة . . .
باركى سريره الصغير . . .
إنه كان خيرى ، بل خيرى الوحيد

* * *

إذا أصابنى الله فى غضبه
فاعطفى أنتِ على الصغير البرئ
واستجيبى لى . . . إننى أُم
تطلب الموت فى سبيل ولدها

* * *

سلام عليك يا مريم
أرى طفلى وُلد ثانية بالصلاة
كأنه الزهرة العاطرة ، والمنحة الجميلة ،
والجمال الجذاب ، والسر المقدس ،
انظرى إلىّ ! أنت يا موضع أملى !
ولدى ! إن جبينك ليسطع نوراً .
شكراً لك أيتها الأم الآلـهية
أنتِ التى أنقذتِ ولدى
سلام عليكِ يا مريم . . .

* * *

هى مقطوعة تناجى بها أم ثكلى « مريمَ » وتبثها شكواها . وقد برح بها الحزن وأمضها الألم . والآن تغلق قلبها المفتوح وتطوى ألمها المنشور ، وتحس براحة نفسـية ، تصافح الألم فلا تراه شائكاً ، بل هى الآن أوسع صدراً للألم لأنه لا يعانى على إيمانها . وقد تكون هذه الفكرة فكرة فنان شاعر يناجى مثله الأعلى الذى وجد فيــه أمله الأسمى . فهو يحمل نفسه المجرّحة يريد أن يلقى لها منزلاً تنزل فيه ، فيجد الأبواب كلها مسدودة ، وها هو ذا الآن على طريق المثل الأعلى الذى سلخه عن الوجود

قد تلاشى الحب فى « شوبير » وانطفأت جذوته الملتهبة ، وابتعدت ذكرياته المذيبة . لا لأن شوبير محب كاذب يسهل عليه الاتصال والانفصال . ولكن شوبير قلبه قلب فنان ، وقلب الفنان كبير ، قد ارتسمت – على قلبه – كل أشواقه الماضية ، وآلامه الغابرة وسرت معــه لتؤلف « ذلك المثل الأعلى » بفنه الذى – كما قالت كارولين – إنه وحده يعطيه الخلود

وقد يتساءل القارئ : أما وقد عاد شوبير خائباً ، فكيف التقت به « إيمى » فتاته الأولى ؟ بقيت نقطة غامضة لم يعالجها المخرج ليترك المثل الأعلى منتصراً على كل شىء

٥

قد لا تروق هذه النتيجة للبعض ، لأنهم يتاقونها بعقولهم ، وعقولهم لا يرضيها شىء من غذاء العاطفة ، ولا تقبل إلا بما فيه غذاء لمنطقها ، ولا يغذى منطقها إلا عالم الواقع الملموس . . . ولكن فاتهم أن هذا العالم الواقعى قد بدأت تطفو عليه عوامل الاضمحلال لأنهم قتلوا فيــه كل مثل ، سواء ذلك المثل الذى يوحيه الفن أو توحيه الشمر

لا يحمل الناس من هذه الوهدة التى نزلوا فيها وهذه المادية التى استغرقوا فيها إلا الايمان بالمثل الأعلى فهل نرى – السينما ! – تقف يوماً أمام الفن والشعر جنباً لجنب ، لتؤدى ما عليها من التبشير بهذا « المثل الأعلى » ؟

خليل هنداوى

---

[1] هى أغنية – كما يتضح – تناجى بها أم ثكلى « مريم العذراء » وهى مشهورة بين الألحان الكنائسية

٩ - شاعرنا العـــالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

زهده وتكسبه بالشعر: كان أبو العتاهية مع زهده لا يترك التكسب بشعره ، وإذا رجعنا إلى حاله فى ذلك وجدناه لم ينقطع عن بنى العباس وقبول جوائزهم من عهد المهدى الذى ابتدأ اتصاله بهم فيه ، إلى عهد المأمون الذى انتهت فيه حياته ، وقد طعن عليه بذلك فى زهده كثير من منافسيه فى الشعر وغيره ، وحملوا ذلك منه على الرياء والمخادعة ، وقد أنشد المأمون بيت أبى العتاهية يخاطب سلما الخاسر :

تعالى اللهُ يا سَلم بن عمرو أذلَّ الحرص أعناق الرجال

فقال المأمون : إن الحرص لمفسد للدين والمروءة ، والله ما عرفت من رجل قط حرصاً ولا شرهاً فرأيت فيه مصطنعاً . فبلغ ذلك سلماً فقال : ويلى على المخنث الجرار الزنديق ، جمع الأموال وكنزها ، وعبأ البِدَرَ فى بيته ، ثم تزهد مراآة ونفاقاً ، فأخذ يهتف بى إذا تصديت للطلب . واجتمع أبو العتاهية مع جماعة عند قُثَم بن جعفر بن سليمان فأخذ ينشد فى الزهد ، فطلب قثم الجماز فأحضر اليه وأبو العتاهية ينشده ، فأنشأ الجماز يقول :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهّد الناس ولا يَزْهد
لو كان فى تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف أن تنفـــد أرزاقه والرزق عنـــد الله لا ينفد
والرزقُ مقسوم على من ترى يناله الأبيض والأسود

فالتفت أبو العتاهية اليه فقال من هذا ؟ قالوا الجماز ، وهو ابن أخت سلم الخاسر ، اقتص لخاله منك ، فأقبل عليه وقال له : يا ابن أخى إنى لم أذهب حيث ظننت ولا ظن خالك ولا أردت أن أهتف به ، وإنما خاطبته كما يخاطب الرجل صـديقه ، فالله يغفر لكما ، ثم قام

وحدث حبيب بن عبد الرحمن عن بعض أصحابه قال : كنت فى مجلس خزيمة فجرى حديث ما يسفك من الدماء ، فقال والله مالنا عند الله عذر ولا حجة إلا رجاء عفوه ومغفرته ، ولولا عز السلطان وكراهة الذلة ، وأن أصير بعد الرياسة سوقة وتابعاً بعد ما كنت متبوعاً ، ما كان فى الأرض أزهد ولا أعبد منى ، فاذا هو بالحاجب قد دخل عليه برقعة من أبى العتاهية فيها مكتوب :

أراكِ امرءاً ترجو من الله عفوه وأنت على مالا يحب مقيم
تدل على التقوى وأنت مقصر أيامن يداوى الناس وهو سقيم
وإن امرءاً لم يلهه اليومُ عن غد تخوُّف ما يأتى به لحكيم
وإن امرءاً لم يجعل البر كنزه وإن كانت الدنيا له لعديمُ

فغضب خزيمة وقال : والله ما المعروف عند هذا المعتوه الملحف من كنوز البر فيرغب فيه حر . فقيل له وكيف ذاك ؟ فقال لأنه من الذين يكنزون الذهب والفضـة ولا ينفقونها فى سبيل الله

وقد كان أبو العتاهية يجمع إلى أخذه بهذا التكسب الذهاب فى البخل إلى حد مكن منه خصومه فشوهوا به زهـده أيضاً ، وله فى بخله نوادر كثيرة ، وأخبار مأثورة ، قال ثمامة بن أشرس أنشدنى أبو العتاهية :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسَهُ تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنتَ ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقلت من أين قضيت بهذا ؟ فقال من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليتَ ، أو تصدقت فأمضيت . فقلت له أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وانه الحق ؟ قال نعم ، قلت فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة فى دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكى ، ولا تقدمها ذخراً اليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال يا أبا معن والله إن ما قلت لهو الحق ، ولكني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس . فقلت وبم تزيد حال من افتقر على حالك وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد . فترك جواب كلامى كله ، ثم قال لى والله لقد اشتريت فى يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم ، فلما قال لى هذا القول أضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومعاتبته ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للاسلام

وحدث محمد بن عيسى الخزيمى وكان جار أبى العتاهية قال : كان لأبى العتاهية جار يلتقط النوى ، ضعيف سيء الحال ، متجمل عليه ثياب ، فكان يمر بأبى العتاهيـة طرفى النهار ، فيقول أبو العتاهية اللهم أغنه عما هو بسبيله ، شيخ ضعيف سيء الحال عليه

ثياب متجمل ، اللهم أعنه ، اصنع له ، بارك فيه ، فبقى على هذا إلى أن مات الشيخ نحواً من عشرين سنة ، فقلت له يوماً يا أبا إسحاق إنى أراك تكثر الدعاء لهذا الشيخ ، وتزعم أنه فقير مقل ، فلم لا تتصدق عليه بشيء ؟ فقال أخشى أن يعتاد الصدقة ، والصدقة آخر كسب العبد ، وإن فى الدعاء لخيراً كثيراً

وقال على بن مهدى حدثنى الحسين بن أبى السرى قال : قيل لأبى العتاهية مالك تبخل بما رزقك الله ؟ قال والله ما بخلت بما رزقنى الله قط ، قيل له وكيف ذاك وفى بيتك من المال ما لا يحصى ؟ قال ليس ذلك رزق ، ولو كان رزق لأنفقته

وقال محمد بن عيسى قلت لأبى العتاهية أتزكى مالك ؟ فقال والله ما أنفق على عيالى إلا من زكاة مالى ، فقلت سبحان الله ، إنما ينبغى أن تخرج زكاة مالك إلى الفقراء والمساكين ، فقال لو انقطعت عن عيالى زكاة مالى لم يكن فى الأرض أفقر منهم

فأما تكسب أبى العتاهية بالشعر فلا شيء فيه عندى مع أخذه بذلك الزهد ، لأن الزهد فى الاسلام لا يمنع صاحبه من الأخذ بالأسباب والسعى فى الحصول على الرزق ، والتكسب بالشعر سبب من تلك الأسباب ، والشعر فن من الفنون التى لا غنى للدولة عنها ، فيجب أن يأخذ حظه من الأموال التى تجبى فيها ، ويجب على أرباب الدولة أن يبسطوا أيديهم بالعطاء لرجاله ، ليتوفروا على إجادته ، ويتضافروا فى النهوض به ، وليس على الشعراء من حرج إذا لم يصل نصيبهم من ذلك إليهم أن يتلطفوا فى الوصول إليه بمدح الملوك والوزراء ، وكذا غيرهم ممن فى أيديهم تلك الأموال ، وإنما يذم التكسب بالشعر إذا بالغ صاحبه فى الالحاح به ، وجعله كل غايته من الشعر ، فحمله ذلك على الالتواء فى سبيله ، واتخاذ الشعر أداة شر بين الناس ، يقلب الحقائق بينهم ، ويجعل فى سبيل المال الباطل حقاً والحق باطلاً ، والظلم عدلاً والعدل ظلماً ؛ وقد تكسب الشعراء بشعرهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان له شعراء يمدحونه وينصرون دعوته ، ويدافعون عنه أعداءه ، ويردون عنه هجاءهم بالحق إذا هجوه بالباطل

ولم يكن شاعرنا أبو العتاهية بحيث يصل به التكسب بالشعر إلى هذا الحد ، وقد مضى لنا فى ترجمته ما يؤيد ذلك له ، وكم له من مواقف مشهودة مع ملوك عصره وأمرائه ، لم تنسه فيها جوائزهم أن ينكر عليهم ما يستحق الانكار منهم ، أو يغضب لنفسه إذا رأى منهم أقل تهاون به . حدث الحسين بن أبى السرى

قال : مر القاسم بن الرشيد فى موكب عظيم ، وكان من أتيه الناس ، وأبو العتاهية جالس مع قوم على ظهر الطريق ، فقام أبو العتاهية حين رآه إعظاماً له ، فلم يزل قائماً حتى جاز فأجازه ولم يلتفت اليه ، فقال أبو العتاهية :

يتيه ابنُ آدم من جهله ... كأن رحا الموت لا تطحنُهْ

فسمع بعض من كان فى موكبه ذلك فأخبر به القاسم ، فبعث إلى أبى العتاهية وضربه مائة مقرعة ، وقال له : يا ابن الفاعلة أتعرض بى فى مثل ذلك الموضع ؟ وحبسه فى داره ، فدس أبو العتاهية إلى زبيدة بنت جعفر وكانت توجه له هذه الأبيات :

حتى متى ذو التِّيهِ فى تيهه ... أصلحه الله وعافاهُ
يتيه أهل التيه من جهلهم ... وهم يموتون وإن تاهوا
من طلب العزّ ليبقى به ... فان عز المرء تقواه
لم يعتصم بالله من خلقه ... من ليس يرجوه ويخشاه

وكتب إليها بحاله وضيق حبسه ، وكانت مائلة اليه فرقت له ، وأخبرت الرشيد بأمره وكلمته فيه ، فأحضره وكساه ووصله ، ولم يرض الرشيد عن القاسم حتى بر أبا العتاهية وأدناه واعتذر اليه

وحدث محمد بن عيسى قال : كنت جالسا مع أبى العتاهية إذ مر بنا حميد الطوسى فى موكبه ، وبين يديه الفرسان والرجالة ، وكان بقرب أبى العتاهية سوادى على أتان ، فضربوا وجه الاتان ونحّوه عن الطريق ، وحميد واضع طرفه على معرفة فرسه ، والناس ينظرون اليه يعجبون منه وهو لا يلتفت تيهاً ، فقال أبو العتاهية :

للموت أبناءٌ بهم ... ما شئت من صلف وتيه
وكأنني بالموت قد ... دارتْ رحاه على بنيهْ

فلما جاز حميد مع صاحب الأتان قال :

ما أذلَّ المُقِلَّ فى أعين النا ... س لاقلاله وما أقماهُ
إنما تنظر العيون من النا ... س إلى من ترجوه أو تخشاه

وقد كان أبو العتاهية فى آخر أمره يحاول جهده أن يجعل جوائز الملوك وغيرهم اليه فى نظير هدايا يتقدم بها اليهم ، كما كان يفعل ذلك مع الأمين والمأمون فيما ذكرنا فى ترجمته ، وهو فى ذلك يشعر بسمو منزلته إلى منزلتهم ، ويترفع عن ذلك التكسب الذى كان يأخذ به فى أول أمره ، وإن كان على تلك الطريقة التى لم يكن لها أثر معيب فى نفسه

وأما بخله فنعتقد أنه لم يصل فيه إلى ذلك الحد الذى يؤثر فيه ما أثر عنه من تلك النوادر وغيرها ، وإنما ذلك من اختلاق

خصومه ومنافسيه عليه ، ليشوهوا منه تلك الصيحة المُدوِّيَة فى الزهد ، ويظهروه فى مظهر من يقول بما لا يفعل ، فلا يتأثر الناس بدعوته ، ولا ينظرون إلى أقواله ، ولاشك أنه يشفع لأبى العتاهية فى ضنه بماله أنه كان رجلاً شاعراً يجمع ماله من أيدى الملوك والعظماء ، ويبذل فى ذلك ماء وجهه على ما كانت عليه نفسه من عزة ورفعة ، فاذا ضن به بعد هذا فانما يحمله على ذلك أن يكون دائماً فى غير حاجة ملحة إلى من يحاول أن يشترى شعره بها ، فيسير فيه كما يشتهى هو لا كما يشتهى غيره ، وقد كان أبو العتاهية دائماً مهدداً من أجل هذا بالحرمان ، وعرضة للتضييق والسجن واستباحة المال ، فهو يجمع من ذلك ما يجمع ليجده فى وقت حرمانه ، ويضن به على من لا يجده فى ذلك الوقت إلا عدوا له أو شامتاً فيه ، وقد كان يجد من الناس ما ساء به ظنه فيهم ، وآثر به العزلة عنهم ، وكان له فيهم مذهب غريب يقضى بتبخيلهم كلهم ، فهو يقارضهم بخلاً ببخل ، ويضن عليهم ضناً بضن ، قال مخارق : لقيت أبا العتاهية على الجسر ، فقلت له : يا أبا اسحاق أتنشدنى قولك فى تبخيل الناس كلهم ؟ فضحك وقال لى : ها هنا ؟ قلت : نعم ، فأنشدنى :

إن كنت متخذاً خليلا فَتَنَقَّ وانتقد الخليلا

من لم يكن لك منصفاً فى الود فابغ به بديلا

ولربما سئل البخيـ ـل الشيءَ لا يسوى فتيلا

فيقول لا أجد السبيـ ـل اليه يكره أن يُنيلا

فلذاك لا جعل الالـ ـه له إلى خير سبيلا

فاضرب بطرفك حيث شئـ ـتَ فلن ترى إلا بخيلا

فقلت له : أفرطت يا أبا اسحاق ، فقال : فديتك فأكذبنى بجواد واحد ؟ فأحببت موافقته ، فالتفت يميناً وشمالاً ، ثم قلت : ما أجد ؛ فقبل بين عيني وقال : فديتك يابنى ، لقد رفقت حتى كدت تسرف

وهكذا مضى أبو العتاهية عظيما لم يزر به بخله ولا تكسبه بشعره ، كما أزرى ذلك بغيره ، ولو أن ذلك أزرى به كما زعمه خصومه لما كان لمنصور بن المهدى أن عد اليه يده لزوجه إحدى ابنتيه ، وقد كان لأبى العتاهية بنتان : احداهما « لله » والأخرى « بالله » ، فخطب منصور منه « لله » فلم يزوجه ، وقال : إنما طلبها لأنها بنت أبى العتاهية ، وكأنى به قد ملها فلم يكن لى إلى الانتصاف منه سبيل ، وما كنت لأزوجها إلا بائع خزف وجرار ؛ ولكنى أختاره لها موسراً ؟

عبد المتعال الصعيدى

فى اللغة والأدب

٢ ـ المثنيـــات

فى التاريخ والجغرافية والفلك

للأستاذ محمد شفيق

(الأخشبان) هما جبلا مكة الملصقان بها : أبو قبيس والأحمر ، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان ، والأخشب فى اللغة هو الجبل الخشن العظيم ، ويقال هو الذى لا يرتقى علوه . وهما جبلا مني . وقيل هما الأخشب الشرقى والأخشب الغربى ، فالشرقى أبو قبيس والغربى جبل الخُط من وادى ابراهيم . قال أبو عبيد : وأخشبا المدينة حرتاها

(البونان) بفتح الموحدة وسكون الواو : موضعان باليمن البون الأعلى والبون الأسفل ، وهما متصلان من أعمال صنعاء ، ويقال إن فيهما البئر المعطلة والقصر المشيد المذكوران فى القرآن الكريم

(الخراتان) نجمان من كواكب الأسد ، وقيل كوكبان بينهما قدر سوط وهما كتفا الأسد ، وقيل سميا بذلك لنفوذهما إلى جوف الأسد

(الزبانيان) هما كوكبان نيران ، وهما قرنا العقرب ينزلهما القمر ، وهما مفترقان بينهما أكثر من قامة الرجل فى رأى العين ، ويسميهما أهل الشام يدى العقرب ، ويقال لهما زبانى الصيف ، لأن سقوطهما فى زمن تحرك الحر

(الشرطان) نجمان من الحمل وهما قرناه

(الشرفان) بالوادى الأخضر من دمشق وهما الجانبان المتقابلان شرف أعلى وهو الشمالى وأدنى وهو القبلى ، وبينهما الوادى والنهران بردى وبانياس . ويقال : فلان حاز الشرفين أى شرف الأب والأم

(الفوطتان) بدمشق معروفتان قبلية وشمالية

(الصفصافتان) معروفتان عند الدمشقيين ، وهما : شجرتا صفصاف بالوادى التحتانى معدتان للتنزه ذكرهما الشعراء المتأخرون فى أشعارهم فمنهم الأمير المنجكى حيث قال :

وبالصفصافتين مقام أنس عليل نسيمه يبرى السقاما
إذا غنت حمائمه سكرنا بما تملى ولم نشرب مداما

(العزيزيتان) قريتان بمصر فى ناحية الشرقية منسوبتان إلى العزيز بن المعز

(العسكريان) محمد بن على والحسين بن رشيق، منسوبان إلى عسكر: محلة بمصر، وأبو الحسن على بن محمد . . . بن جعفر وولده الحسن منسوبان إلى عسكر المعتصم وهى مدينة سر من رأى (سامرا)، والعسكريان الأديبان أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى وتلميذه أبو هلال الحسن بن عبد الله منسوبان إلى عسكر مكرم

(الفرقدان) نجمان منيران فى بنات نعش يضرب المثل بهما فى طول الصحبة فى التساوى والتشاكل. قال البحترى:

كالفرقدين إذا تأمل ناظر لم يعد موضع فرقد عن فرقد

(القرافتان) القرافة الصغرى والقرافة الكبرى، فيهما مقبرتا مصر، وكانتا من قبل خطتين لقبيلة من اليمن ثم من المعافر ابن يعفر يقال لهم بنو قرافة

(المحلفان) نجمان يطلعان قبل سهيل فيظن الناظر لكل منهما أنه سهيل، ويحلف أنه سهيل ويحلف آخر أنه ليس به

ما يتعلق بالمنطق من المثنيات

(الجنسان) الجنس القريب والجنس البعيد

(الحدان) الحد التام والحد الناقص

(الضدان) صفتان وجوديتان يتعاقبان فى موضع واحد يستحيل اجتماعهما كالسواد والبياض

(المتقابلان) بالعدم والملكة أمران أحدهما وجودى والآخر عدم ذلك الوجودى لا مطلقاً بل من موضع مقابل له كالبصر والعمى، والعلم والجهل، فان العمى عدم البصر عما من شأنه البصر، والجهل عدم العلم عما من شأنه العلم

(المتقابلان) بالايجاب والسلب هما أمران أحدهما عدم الآخر مطلقاً كالفروسية واللافروسية

(المضافان) هما المتقابلان الوجوديان اللذان يعقل كل منهما بالقياس إلى الآخر كالابوة والبنوة

(النوعان) الحقيقى والاضافى: فالحقيقى الكلى المقول على واحد أو كثيرين متفقين فى الحقائق فى جواب ماهو، والاضافى ماهية يقال عليها وعلى غيرها الجنس قولاً أوليا أى بلا واسطة كالانسان بالقياس إلى الحيوان

المثنيات المتعلقة بالتفسير والقراءات

(النجدان) هما الضلالة والهدى، فى قوله تعالى (وهديناه النجدين)

(مدهامتان) هما فى القرآن بمعنى سوداوين من شدة الخضرة من الرى لأن العرب تسمى كل أخضر أسود

(الصدفان) هما فى الآية الكريمة جبلان متلاصقان، من المصادفة أى المقابلة، وقيل من الصدف وهو الميل لأن كل واحد منهما منعزل عن الآخر

(السدان) هما فى قوله جل وعز (حتى إذا بلغ السدين) الجبلان المبنى بينهما السدان وهما جبلا أرمينيا وأذربيجان، وقيل هما جبلان منيعان فى آخر بلاد الترك

(الابنان) هما فى مصطلح أهل القراءات ابن كثير وابن عامر

(الأبوان) هما أبو عمرو وأبو بكر بن عاصم القارئان المشهوران

(الاخوان) هما حمزة والكسائى. (الحرميان) هما ابن كثير ونافع من القراء السبعة

المثنيات المتعلقة بالحديث الشريف

(التدليسان) أحدهما تدليس الاسناد وهو أن يروى عمن لقيه ولم يسمع منه موهماً أنه لقيه أو سمع منه، والآخر تدليس الشيوخ وهو أن يروى حديثاً عن شيخ سمعه منه فيسميه أو يكنيه ويصفه بما لم يعرف به كيلا يعرف

(الشيخان) هما عند الاطلاق أبو بكر وعمر، وعند المحدثين يراد بهما البخارى ومسلم

(الذبيحان) فى حديث (أنا ابن الذبيحين) اسمعيل أو إسحق وعبد الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم. والمرجح أن الذبيح هو اسمعيل، وأما القول بأنه إسحق فمردود بأكثر من عشرين وجهاً [1]

---

(١) بسط المحبى فى (جنى الجنتين) مفصل القول فى ذلك بتحرير دقيق عن ابن تيمية وغيره من الأئمة

(العودان) منبر النبي صلى الله عليه وسلم وعصاه ، وقد ورد ذكر العودين فى الحديث وفسرا بذلك ، وقال شمر فى قول الفرزدق :

ومن ورث العودين والخاتم الذى
له الملك والأرض الفضاء رحيبها

وكنى بالعودين عن الشاهدين ، قال شريح : القضاء جمرة فادفع الجمر عنك بعودين

(الأسودان) الحية والعقرب ، وفى الحديث (اقتلوا الأسودين)

(الثقلان) الانس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض ولرزانة رأيهم وقدرهم ، أو لأنهم مثقلون بالتكليف ، وفى الحديث (إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى) سماهما ثقلين لأن الأخذ بهما والعمل بهما ثقيل إعظاماً لقدرهما وتفخيما لشأنهما

(الأسواريان) محيسن ومحمد بن أحمد نسبة إلى أسوار — بالفتح — قرية بأصبهان ، محدثان

(الأماميان) محمد بن عبد الجبار ومحمد بن اسمعيل البسطامى محدثان

المثنيات فى الطب والكيمياء والنباتات

(البهقان) أبيض بياضه دقيق ظاهر البشرة لسوء مزاج العضو إلى البرودة وغلبة البلغم على الدم ، وأسود يعترى الجلد إلى السواد لمخالطة المرة السوداء الدم

(الحلولان) حلول سريانى وهو عبارة عن اتحاد الجنسين بحيث تكون الاشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد فى الورد فسمى السارى حالاً والمسرى محلاً ، وحلول جوارى وهو عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر كحلول الماء فى الكوز

(الزرنيخان) أراد به الأطباء الزرنيخ الأحمر ، والزرنيخ الأصفر

(البهمتان) نباتان أحمر ظاهره السواد وأبيض كذلك ، وهما فارسيان معربان وكلاهما يضران السفل ويصلحهما الأنيسون والكثيرا أو العناب

المثنيات المتصلة بالفلسفة والأخلاق والتصوف

(الأجلان) هما على رأى الفلاسفة طبيعى واخترامى فانهم قالوا : الرطوبة الغريزية من الحرارة الغريزية بمنزلة الدهن للفتيلة المشتعلة وكلما انتقص تتبعها الحرارة الغريزية فى ذلك . . . . الخ ما ذكره المحبى فى « جنى الجنتين »

(الأدبان) أدب الغريزة ، وهو الأصل ، وأدب الرواية وهو الفرع ، ولا يتفرع شىء إلا بنمو أصله ، ولا ينمو الأصل إلا باتصال المادة ، وقيل الأدبان أدب النفس وأدب الدرس

(الامامان) هما فى اصطلاح أهل التصوف : الشخصان اللذان أحدهما عن يمين العرش أى القطب ونظيره فى الملكوت وهو مرآة ما يتوجه فى المركز القطبى إلى العالم الروحانى من الامدادات التى هى مادة الوجود والبقاء ، وهذا الامام مرآته ، والآخر عن يساره ونظيره فى الملك وهو مرآة ما يتوجه منه إلى المحسوسات من المادة الحيوانية وهذا مرآته ومحله أعلى من صاحبه وهو يخلف القطب إماماً إذا مات

(الفناءان) أحدهما سقوط الأوصاف المذمومة ، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة وهو بكثرة الرياضة ، والثانى عدم الاحساس بعالم الملك والملكوت ، وهو بالاستغراق فى عظمة البارى ومشاهدة الحق

(الصورتان) النوعية والجسمية ، وهما محلهما الهيولى ، وهى جوهر فى الجسم قابل لما يعرض له من الاتصال والانفصال

ما يتصل بالفقه والأصول من المثنيات

(البيِّعان) هما البائع والمشترى ، وفى الحديث : « البيعان بالخيار مالم يتفرقا »(١)

(المفهومان) مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة : فالأول مايفهم من الكلام بطريق المطابقة ، والثانى ما يفهم من الكلام بطريق الالتزام ، وقيل هو أن يثبت فى المسكوت على خلاف ما يثبت فى المنطوق

(الخليطان) هما الشريكان يخلط أحدهما ماله بمال الآخر ، وفى الحديث : « وما كان من خليطين فانهما يتراجعان بينهما بالسوية »(٢)

(البيهقيان) حنفى وشافعى : فالحنفى إسماعيل بن الحسن ، والشافعى أحمد بن الحسين

(يتبع) محمد شفيق

(١) فى « جنى الجنتين » وكتب الفقه تفصيل آراء الفقهاء فى معنى الحديث
(٢) شرح هذا الحديث فى « جنى الجنتين » فى صفحة كبيرة

القصص

صور من هوميروس

٢ – حروب طروادة

باريس يعود

للأستاذ دريني خشبة

– « ألست تحن إلى وطنك ، وتتمني لو ترى والديك يا باريس ؟ . . . »

– « وطني ووالدى ؟ »

– « . . . ؟ . . . »

– « وهل لى وطن غير هذه المروج الخضر ، ووالدان غير أبى الراعى وأمى المتداعية الفانية ؟ »

– « مسكين ! ! »

– « بل أسعد الناس بأن أكون ابنهما ! ولمْ ؟ أليس أبى سيد هذه الفلوات ، وأمى أعز الأمهات ؟ »

– « ذلك حق لو أن أباك هذا الراعى يا باريس ! »

– « ماذا تعنين ؟ »

– « أعنى أنك لست ابنه ؟ ... »

– « وىْ ! لو لم تكونى ڤينوس لقتلتك ! »

– « الحق أقول أيها العزيز ! »

– « أنت تعذبينني ! ابن من إذن ؟ ... »

– « أترى إلى جمالك البارع ، وجسمك المشوق السمهرى ؟ أيكون هذا الخلق من نسل الرعاة الأجلاف ؟ »

– « ...... ؟ ...... »

– « أتدور بك الأرض إذا علمت أنك ابن ملك ؟ ... »

– « سخرية وهزؤ ... إلام تلذعين فؤادى يا ربة الحسن والحب ؟ ألأننى أعطيتك التفاحة الخالدة ؟ ... ... »

– « الآلهة لا تكذب يا باريس ! »

– « أنا ؟ ... أبى ... ملك ؟ ... هذا الراعى ؟ ! ملك ماذا ؟ »

– « ليس هذا الراعى قلت لك ! ! أنت لست ابنه ! أنت سليل الملوك ، الصيد ! ! ... ... »

– « إذن من عسى أن يكون أبى ؟ ... ... »

– « ملك طروادة ! ! ... ... »

– « ملك طروادة أبى ؟ ... بريام ؟ ! ... ... »

– « هو ... هوَ ... ... »

– « هاهاها ... ... ومن جاء بى هنا ؟ سرقونى ؟ ... أليس كذلك ؟ ... ... »

– « لا تنس يا باريس أنك فى حضرة ڤينوس ... وأقولها لك كرة أخرى : إن الآلهة لا تكذب ... أجل أنت ابن بريام ملك طروادة ... قيل له إنك تجر عليه ألواناً من العذاب فصدق ، وأرسل بك من تركك فوق جبل بعيد ، لتأكلك الذئاب ... كل هذا إذ أنت طفل صغير ... وليد ... ولقد عثر بك ذلك الراعى الذى تحسبه أباك ففرح بك وقال لامرأته : عسى أن يكون لنا منه ولد ... والآن ... لقد وعدتك زوجة جميلة ... أجمل امرأة فى العالم ... فاذهب أولاً إلى طروادة ، والق أباك فانه سيعرفك ... سيعرفك لأن له أبناء خلقهم كخلقك ... وسيحدثه قلبه ... وتكلمه روحه أنك ابنه ... سيفرح بك بريام يا باريس ، وسيخفق قلب هكيوبا ... أمك التى تبكى من أجلك ، وتتمناك بنصف مُلكها !

فاذا اطمأنوا بك ، ولبثت فيهم أياماً ، فأبدِ لهم رغبتك فى الابحار إلى بلاد الأغريق فى أسطول كبير ... ... إن ثمة المرأة التى وعدتك ... أجمل نساء العالم ... »

وغابت ڤينوس !

* * *

جلس باريس على صخرة تشرف على البحر المضطرب من جهة ، وعلى السفح المعشوشب المصطخب بالحياة من جهة أخرى ، ثم أخذ يفكر فى كل كلمة انفرجت عنها شفتا ڤينوس …

« تُرى ؟ ! أصحيح ما قالته ڤينوس ؟ أصحيح أن بريام أبى ؟ ألا أنادى أبى الراعى بعد اليوم ؟ وأنت أيتها الشاء والنَّعم : أفراق لالقاء بعده ؟ وا أسفاه ! لم لقيت ڤينوس ؟ عزيز على أن أهجرك إلى الأبد أيتها البطاح ! وأنت أيتها السماء الحبيبة ؟ بمَ أستبدل قلائدك الدرية فى الليل ، وشمسك الدافئة ، وسحبك الموشاة بالذهب فى النهار ؟ ! … … … … … »

الآلهة لا تكذب ! ! هكذا كانت تقول ڤينوس ! أنا إذن ابن ملك ! وأبى لابد أن يكون غِرًّا ضيق العطن ، وإلا فلم صدق ما ذكرته له الكهنة عنى ؟ طفل صغير يُنبذ بالعراء لتأكله السباع ! يالقساوة القلوب ، وتحجر الأكباد ؟ ! وأمى ؟ أين كانت أمى ؟ وأين كان قلب الأم فى هذه المرأة ؟ كيف سهل عليها أن تدعنى يُنطلق بى لأنبذ بالعراء ، فريسة لاحول لها لكلاب الجبل ، وطعمةً شقية لسباع البرية ؟ ! … … … … »

لا بد أن أذهب ! لا بد أن أعلم حقيقة أمرى ! وداعاً أيها البحر ! وداعاً أيتها المروج ! يا كل شىء هنا … وداعاً ! »

وانطلق لا يلوى على شىء …

وكان أصدقاؤه الرعاة يلقونه فى الطريق فينكرون منه كل شىء ! ينكرون منه انقباضه وعهدهم به طلق المُحيّا لا يفارق المرح ثغره البسام ، وينكرون منه صمته الطويل وهو الثرثار الذى لا يقف لسانه ولا تسكن شفتاه ! وينكرون منه هذه النظرات العميقة الحزينة ، وهو ذو العينين الضاحكتين والجبين المشرق الطروب …

وكان هو ينكرهم جميعاً كذلك ! أليس قد عرف أنه ابن ملك ؟ وابن أى ملوك العالم ؟ ابن ملك طروادة ! وهل أقوى وأعظم فى ملوك العالم من ملك طروادة ؟

وبرغم هذا الانكار كان الرعاة ما يبرحون يحبون باريس ويعجبون به ، وقد أحزنهم أن ينطلق فريداً وحيداً فى فلوات تدمدم فيها السباع وتهمهم الوحوش ، فذهبوا يقتصون أثره ، وكانوا له حرساً شديداً فى وحشة هذه البرية المخوفة …

ووصل إلى طروادة …

وجلس فوق هضبةٍ مرتفعةٍ قليلاً فنظر إلى المدينة الخالدة !

واجتمع حوله أصدقاؤه الأمناء الأوفياء يسألونه فيم جاء إلى هذا البلد ، ولم هجر قطعانه وأوطانه ، وهل فى أمره … حب …؟

وطمأنهم باريس ، وزوّق لهم الأحلام والأمانى ، ووعدهم خيراً « لا ترى مثله عين ، ولا يخطر على قلب بشر »

ودخلوا المدينة …

ويمموا ميدانها الرحب الفسيح ، حيث اجتمع خلق كثير يشهدون المهرجان الرياضى ، ويمتعون أنظارهم بشتى الألعاب التى يمارسها أبطال طروادة وما جاورها من القرى . ولبث باريس وأصحابه ينظرون إلى المتبارين ساعة ، ثم زهاهم الروح الرياضى فقدموا أنفسهم إلى الرئيس المشرف على الألعاب ، فأشركهم فى كثير من المباريات …

ولقد برّز باريس على أقرانه ، وبذّ كل من تبارى معهم فى مضمار ، حتى لفت إليه أعين النظّارة وأصبح موضع إعجاب الحاضرين …

وكانت الأسرة المالكية ، الملك وزوجه وأبناؤه وحاشيته ، يحدّقون فى الفتى مشدوهين مأخوذين ، وكانت الملكة خاصةً تحس كأن رباطاً روحانياً يجذبها إلى الناحية التى يجول باريس فيها ويصول ؛ بل كانت تشعر كأن الحديد الذائب فى عضلات البطل ، إنما يتدفق من عضلاتها هى ! وأعجب من ذلك جميعاً ، ذلك الحنان المتفجر فى قلبها ، وذاك الحب الحزين السادر الذى يغمرها كلّها من أجل هذا الغريب المفاجئ المجهول !

ولمحت كاسّنْدرا ، ابنة الملك ، ما كان ينتاب أمها من عواطف ، وكانت فتاةً بارعة الحسن ، مليحة الدل ، فينانةً ريّانة ؛ أعجب بها أبوللو فمنحها حبه ، وهام بها حتى لكان يعبدها عبادةً ، وهو الآله المعبود !

وكان ما يفتأ يباركها ويخلع عليها من نعمه ؛ فمن ذلك أنه وهبها القدرة على كشف الغيب ، والتنبؤ بما كان وما يكون ؛ فكانت تخبر الناس بماضيهم وحاضرهم وما يكون من مستقبلهم وهم يسمعون ويعجبون …

ولكنها تاهت على أبوللو ودلّت ، وكانت أبداً تمنحه الجفاء والصدود ، وتُعرض عنه وهو المقبل عليها بروحه وقلبه وشعره وموسيقاه !

رجاها أبوللو أن تكون له ، وأن ترتضيه لها بعلاً ، ووعدها لقاء ذلك أن يبنى لها القصور الشماء فى قبة السماء ، وأن يحملها معه أبداً فى رحلاته العلوية فترى كل ما يدب على الأرض ، وأغراها بالتوسط لدى كبير الآلهة زيوس الأعظم فيمنحها الخلود وربما رفعها إلى صفوف الآلهة أنفسهم ... ... بيد أنها ما كانت لتزداد إلا شماساً وعنادا

ولما ضاق أبوللو بها ذرعاً ، صب جام غضبه عليها ، وسلّط عليها سخرية سامعيها ، فما تقول شيئاً ، ولا تتنبأ بشىء ، ولا تكشف غيباً ، إلا استهزأ بها الناس ، وعيروها بأنها تكذب وتهرف وتدعى ! . . .

فلما شاهدت ما كان من فورة الاحساس التى تجرف قلب أمها من أجل باريس ، ذكرت لها أن هـذا الشاب إن هو إلا أخوها الذى نبذوه بالعراء فوق الجبل لتأكله السباع ، وآيتها على ذلك هـذا التشابه الشديد بينه وبين أخيها هكتور وبينه وبين أبيها الملك . وحاجها قومها فأحضروا باريس ليطابقوا بينه وبين هكتور . . . ولكن ما كادت المطابقة تتم حتى أخذته هكيوبا فى حضنها الحنون المرتجف ، صائحة مستعبرة : « ولدى باريس . . إبنى باريس ... ولدى ... إلىّ إلىّ يا بنى ... ! ! » . أما الملك فقـد بكى هو الآخر ، ونهض فعانق ابنه عناقاً طويلاً حاراً ، غاسلاً جبينه المتلألئ المشرق بدموع الاعتذار عن الماضى البعيد المحزن

ولما أخبرهم باريس أن ڤينوس ، ربة الحب والحسن ، هى التى هدته إلى مولده ومنشئه وكريم أرومته ، خر الملك وأهله لها ساجدين ... إلا كاسندرا

لقـد عبست عبوسةً قاتمة ، وحدجت أخاها الغريب بنظرة كالحة ! ! ثم صاحت بالملك : « أبى ! لتحذر هـــذا الأخ ... لتحذر باريس ... ولتذكر نبوءة الكهنة فى معبد أبوللو .... ابنك يجر الخراب على مملكتك ، ويعرض شعبك للدمار ، وينشر الموت فى بيوت رعاياك ! ! »

وهنا ينتقم أبوللو ، ويسخر من حبيبته الجافية !

لقد تضاحك الملك مستهزئاً ، وغمزت الملكة ابنتها ولمزتها بكلام قارص ... أما هكتور ، فقد عبث بأخته ومازحها مزاحاً ثقيلاً ...

مسكينة كاسندرا !

حتى الحاشية استهزأت بها وأشعرتها المذلة والهوان ... !

كل ذلك والرعاة ... أصدقاء باريس ... ينظرون ويعجبون ... ولا يفهمون ! !

الآلهة لا تكذب ! !

أفرخ روع باريس إذن ! وصدق كل ما ذكرته ڤينوس !

ها هو ذا يعيش فى قصر منيف باذخ ؛ وها هو ذا ، لأول مرة فى حياته يخلع هذا الصوف الخشن الغليظ ، ليلبس من سندس أبيض واستبرق ! والولدان البيض كالتماثيل يطوفون عليه بأكواب الخمر من فضة ، وصحاف الآكال من ذهب ! وشعب بأسره يطيع أباه ويطيعه ، وجيوش تصدع بأمره ، وأساطيل لجاب تملأ البحر ، إذا شـــاء أقلعت وإذا شاء أرست ؛ ؛ ؛ وملك وسلطان ، وتاج وصولجان ... ! !

لا تنقصه الآن إلا أجمل فتاة فى العالم . . .

تلك الفتاة التى وعدته فينوس ! وما دامت الآلهة لا تكذب فأجمل فتاة فى العالم هى من غير ريب فى بلاد الأغريق ... لأن ڤينوس أوصته بوجوب الابحار إليها ... وهل أجمل من حسان اسبرطة فى بلاد الاغريق ؟! إنهم قوم يعبدون الجمال واعتدال القوام

إذن ، فليبحر باريس إلى اسبرطة ! !

(لها بقية) دريني خشبة

فى حفلة استقبال سمو الأمير سعود

يقال إنه كان للهدية الثمينة التى انفرد بتقديمها أحد كبار الهنود بمصر . حضرة السـيد بير شريف على الدنى صاحب فابريقة سجاير ملوك الهند وفخر العرب ، من بين المحتفلين بقدوم سمو الأمير سعود بالوكالة العربية بالقاهرة وقد نالت عنـد سمو الأمير حسن القبول والاعجاب فتناولها شاكراً وأثنى على صاحبها مما لفت نظر جميع المحتفلين بسموه وجعلهم يتحدثون بشأنها ، وندرة هـذا النوع من الهدايا إذ لا وجود له إلا بين قصور الملوك والأمراء وخاصة فى الهند مما روته الصحف فى حينه يوم الحفل من الأسبوع الماضى م؟

البريد الأدبي

كتاب جديد عن ستالين

قرأنا في مجلة « لوروب نوڤيل » وصفاً لمؤلف جديد عن « ستالين » بقلم مسيو بيير فريدريس . والظاهر أن شخصية ستالين (أو الرجل الصلبي) طاغية روسيا السوفييتية أضحت مستقر الاهتمام والدرس ؛ فلأسابيع قلائل يصدر عن ستالين كتاب جديد بالفرنسية . وقد سبق أن أشرنا في هذا المكان إلى صدور الكتاب الأول وهو بقلم مسيو هنري باربيس الكاتب الفرنسي الثوري ؛ وأما الكتاب الثاني فعنوانه ستالين أيضاً وهو بقلم مسيو بوريس سوڤارين الكاتب الشيوعي ؛ والكتاب الجديد بالفرنسية أيضاً مع أن مؤلفه مسيو سوڤارين روسي الأصل نشأ في مهد الصحافة الروسية ، ولكنه نزح إلى فرنسا منذ الثورة البلشفية ، وغدا من أقطاب الشيوعيين في فرنسا ، وكتابه يقع في مجلد ضخم يناهز السبعمائة صفحة ، وهو كما يسميه في عنوانه « خلاصة لتاريخ البلشفية » بيد أنها خلاصة ضافية جداً . ويبدأ مسيو سوڤارين بالكلام عن ستالين ونشأته الأسيوية في بلاد الكرج في أسرة ريفية فقيرة ؛ ثم يتناول تاريخ الحركات الثورية في روسيا منذ أواخر القرن الماضي بإفاضة ، وتاريخ الأحزاب الثورية ومبادئها ، وكيف تمخضت عن قيام الحزب البلشفي في أوائل هذا القرن ؛ ويتطرق من ذلك إلى الحديث عن مقدمات الثورة البلشفية التي انتهت بقيام الحكومة السوفييتية وقبض البلاشفة على اقدار روسيا إلى اليوم ، ويستعرض خلال ذلك كل ما سنه البلاشفة من القوانين أو النظم الجديدة الاقتصادية والاجتماعية ؛ ويعني عناية خاصة باستيعاب كل ما يتعلق بتلك الشخصية الغامضة — ستالين — وكل ما يمكن أن يلقي الضياء على خواصها الغريبة . ويبدو ستالين خلال هذا الدرس شخصية مدهشة ، فبينما نراه في ثوب متواضع جداً رجلاً لا يتمتع بثقافة محترمة ، إذا به رجل ذو إرادة حديدية مخيفة ، وإذا به طاغية خطر ، يتذرع بأقسى الوسائل لتحقيق سياسته وأهوائه ، ثم إذا به لا يزال مطبوعاً بالنزعة والصفات الأسيوية القديمة في الشغف بالدس والعمل من وراء ستار . ثم لا ريب مع ذلك أن ستالين من أعظم شخصيات التاريخ الحديث ، وهو بذلك جدير بأن يدرس دراسة عميقة واسعة كتلك التي يقدمها إلينا مسيو سوڤارين بعد أعوام طويلة من البحث والدرس في جميع المصادر والمحفوظات الروسية والأجنبية

وفاة شاعر انكليزي كبير

توفي أخيراً الشاعر الانكليزي السير وليم وطسون في نحو السابعة والسبعين من عمره ، وكان يعاني آلام المرض منذ أعوام ؛ وولد السير وطسون في سنة ١٨٥٨ في بلدة من أعمال يوركشير ، وتلقى تربيته الأولى في ليفربول حيث كان أبوه يشتغل بالتجارة ، ثم درس الحقوق في جامعة ابردين ؛ وفي سنة ١٨٨٠ نشر أولى قصائده في كتاب سماه « أمنية الأمير » وظهر فيه تأثره بنفوذ الشاعرين كيتس وتنيسون ؛ وبعد بضعة أعوام أخرج كتابه « صور من الفن والحياة والطبيعة » ، ولكنه لفت الأنظار لأول مرة حينما نشر في سنة ١٨٩٠ قصيدته الشهيرة « قبر وردسورث » التي أثارت يومئذ اعجاب النقدة ، واعتبرت دليلاً قاطعاً على مقدرته الشعرية ؛ وأعقب السير وطسون ذلك بعدة قصائد وأناشيد شعرية ؛ وظهر من ذلك الحين بمواهبه الأدبية ، واشترك في تحرير كثير من الصحف الأدبية الشهيرة . ولما توفي الشاعر تنيسون رثاه بقصيدة رائعة ضم اليها قصيدة أخرى في الذكرى المئوية للشاعر شيللي (سنة ١٨٩٣) . وفي ذلك العام منحته الحكومة « معاش الأدب » الذي كان مخصصاً لتنيسون وقدره مائتا جنيه . ولما وقعت المذابح الأرمنية في تركيا في أواخر القرن الماضي ، نشر السير وطسون عدة قصائد وأناشيد عنها في جريدة « الوستمنستر جازيت » ثم جمعت بعد ذلك في

ديوان سمى « عام العار » . وفى سنة ١٩٠٩ نشر ديواناً سماه « القصائد الجديدة » فلقى نجاحاً عظيما ، ثم نشر « الشعر فى المنفى » ، وأنعم عليه بلقب « السير » سنة ١٩١٧ ؛ واستمر السير وطسون بعد ذلك يخرج مجموعات شعرية متعاقبة

ويحمل شعر السير وطسون طابع المدرسة الروائية وميلها إلى البلاغة ، بيد أنه يمتاز بالوضوح الجم والاحتشام الرفيع

ولما مرض السير وطسون منذ أعوام ولم تف موارده بحاجته للعلاج ، أبدى مواطنوه له تقديرهم وإعجابهم بفتح اعتماد مالى شعبى يمكنه من اتمام علاجه وارتياد المصحات اللازمة ؛ وقد نجح الاكتتاب نجاحاً عظيما

وفاة السيد محمد رشيد رضا

استأثر الله فى يوم الخميس الماضى بالعالم الكاتب والفقيه الحجة السيد محمد رشيد رضا صاحب (المنار) ؛ أدركه موت الفجاءة وهو فى السيارة عائداً من توديع الأمير سعود فى السويس . وليس فى العالم الاسلامى مثقف يجهل تلميذ الأستاذ محمد عبده ، وحامل لواء الاصلاح الدينى من بعده ؛ فان أربعين سنة قضاها الفقيد الكريم فى تحرير المنار يفسر كتاب الله على طريقة الامام ، ويبسط أحاديث الرسول على نهج السلف ، ويحرر الفتاوى فى المسائل الدينية المختلفة ، ويقطع ألسنة المبشرين والملحدين بالأدلة النواهض ، ويجلو عن الشريعة ظلام الشُبه بالعقل النير ، ويزيد فى ثروة الأدب الاسلامى بالمصنفات القيمة ، حرية أن تحله من قلوب المؤمنين موضع التجلة ، وتبوئه من صفحات التاريخ مكان الأئمة

ولد الفقيد فى قرية (القلمون) إحدى قرى لبنان القريبة من طرابلس ، فتلقى العلم طفلاً ويافعاً فى هذه المدينة ، ثم هاجر إلى مصر ، فدخل الأزهر واتصل بالامام محمد عبده اتصالاً وثيقاً ، فأشار عليه أن يصدر (المنار) فكانت سجلاً لآراء الأستاذ الاجتهادية فى حياته ، واستمراراً لدعوته الاصلاحية بعد مماته . ثم ساهم فى النهضة العربية واتصل بجمعياتها السرية فى أطوارها المختلفة من سنة ١٩٠٨ إلى قيام الحرب الكبرى . فلما أعلنت الهدنة عاد إلى سورية فانتخب رئيساً للمؤتمر السورى الذى نادى بالأمير فيصل ملكا ؛ ثم ظل فى خدمة هذه الدولة العربية الجديدة حتى ثل عرشها الفرنسيون سنة ١٩٢٠ ، فارتد إلى القاهرة يحرر المنار ويعالج التأليف ، فأصدر طائفة من الكتب القيمة أشهرها تكملة تفسير الامام على هديه ووحيه ، ثم الجزء الأول من تاريخ الامام وكان قد أصدر منه جزءه الثانى فيما قاله ، والثالث فيما قيل فيه ، ثم كتابه الجليل (الوحى المحمدى) وهو من غير شك معجزة نبوغه وكتاب خلوده . رحمه الله رحمة واسعة وعوض فيه الاسلام والمسلمين خيراً

ذكرى آندرسن معبود الطفولة

احتفل أخيراً فى كوبنهاجن عاصمة دانمارك باحياء ذكرى الكاتب القصصى الكبير هانز كرستيان آندرسن ، وذلك لمناسبة مرور ستين عاماً على وفاته . ويحق لدانمارك أن تفتخر أيما فخر بأن ينتسب اليها ذلك الذى يعتبر بحق معبود الطفولة فى جميع أنحاء العالم . ذلك أن آندرسن هو أمير القصص الساذج الذى مازال سحر الطفولة المرحة منذ ثانى قرن . وقد ولد آندرسن سنة ١٨٠٥ فى مدينة أودنسى من أعمال جزيرة فينن ؛ وكان أبوه صانع أحذية شديد الفاقة فلم يتمكن من تربيته ، ولكن جماعة من أصدقائه لاحظوا مواهب الطفل الخارقة ولا سيما فى الموسيقى ؛ ولما بلغ هانز أشده أبدى مقدرة فى قرض الشعر ، وحاول أن ينتظم فى سلك المسرح فى كوبنهاجن ؛ ولكن تربيته الساذجة حالت دون هذه الأمنية ؛ وبلغ الملك خبر هذا الفتى العجيب ومواهبه الخارقة ، فأمر بأن يلقن بعض ضروب الثقافة ؛ وكان لذلك العامل الجديد أحسن الأثر فى إبراز مواهبه الشعرية والفنية . وكان بدء شهرته ومجده قصيدته الخالدة « الطفل المحتضر » . ثم تلاها بقطعة أدبية ساخرة اسمها « نزهة إلى آماك » وقد صدم آندرسن فى بدء حياته الأدبية بمهاجمة النقدة ؛ ولكنه لم يعبأ بهم ؛ وأمر الملك بأن يسافر آندرسن فى بعض الرحلات على نفقته . وكان أعظم ما أخرج آندرسن بعد رحلاته ، قصصه الخالدة التى تعرف « بقصص الجن » . ومنها « كتاب الصور الذى لا صور فيه » « سوق شاعر » « قصص من جتلنده » « البجعة المتوحشة » « العذراء الثلجية » « الجندى الشجاع » وغيرها ؛ وهى جميعاً من القصص البرىء الساذج الذى وضع للطفولة ، ومن أبدع ما أخرج القلم فى هذا الباب من القصص ؛ ويمتاز آندرسن بخياله المبدع وأسلوبه الساحر ، وخفة روحه التى تخلب لب قرائه الأطفال فى جميع أنحاء العالم ، وقد ترجمت قصصه إلى جميع اللغات الحية ، بحيث أصبح بحق كاتباً عالمياً عظيما

قصور بيزنطية

من أنباء استانبول الأخيرة أن المباحث الأثرية التى يجريها العلامة الأثرى الايكوسى الأستاذ باكستون للبحث عن مواقع بيزنطية القديمة قد اسفرت عن العثور على بعض آثار تحدد موقع

القصر الامبراطورى القديم أو قصر قياصرة الدولة الشرقية . وقد توفر على درس هذه المسألة عدد كبير من العلماء ؛ ودرسوها على ضوء الخطط القديمة لعاصمة القياصرة ؛ ولكن مباحثهم كانت نظرية فى الغالب ؛ وأشهر من قام بهذه الدراسات العالمان الأثريان ممبورى وفياند فى رسالتين شهيرتين أثبتت بهما بعض الخرائط والخطط النظرية القديمة لعاصمة القياصرة . وقد استعان الأستاذ باكستر بهذه الدراسات التاريخية على إجراء مباحثه ؛ وبدأ بالحفر على مقربة من جامع السلطان أحمد الذى تجتمع فيه عدة من أشهر الآثار البيزنطية مثل كنيسة أياصوفيا الشهيرة ، وهى على مقربة منه ، ومسرح الهيبدروم (مسرح الخيل) ؛ وحصر الأستاذ حفرياته فى المنحدر المتجه نحو البحر ، فعثر على عمق مترين ونصف متر على ممشى من الرخام وعلى بعض الأساسات القديمة ، ووجد بينها آثار أحجار وفسيفساء تدل على أنها من صنع الترك فى القرن السادس عشر ؛ ولما نظفت هذه الأسس وحفر حول الممشى الرخامى ظهرت فسيفساء أخرى ، عرف فى الحال أنها من بقايا القصر الامبراطورى ، فتوسع الأستاذ باكستر فى الحفر فى تلك المنطقة ، فعثر على قطع أخرى من الفسيفساء البيزنطية القديمة ، ولم يعرف بعد أى جزء من القصر الامبراطورى هذا الذى اكتشف ؛ على أن هذا الممر الرخامى يمتد نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو عشرة أمتار ، وتظلله أعمدة ترتفع نحو خمسة أمتار ونصف متر . والمظنون أن هذا الممر إنما هو أحد أروقة « الهيبدروم » ؛ وقد كانت هذه الأروقة فى العصور القديمة داخل القصر فى الجناح المخصص لشخص الامبراطور ؛ وربما كان هذا الممر الرخامى وهذه الفسيفساء من بقايا كنيسة « ثانيا » وهى الكنيسة الامبراطورية الخاصة ، وربما كان من بقايا الجناح الصيفى الذى بناه الامبراطور تيوفيلوس . ومهما كانت الآراء الخاصة بهذه الآثار ، فان الرأى مجمع على أنها على أعظم جانب من الأهمية فى الكشف عن مواقع القصر الامبراطورى القديم

نظريات الجنس والدم فى ألمانيا

تتخذ نظريات الجنس والدم والسلالة فى ألمانيا كل يوم صوراً مدهشة من الغلو والأغراق ؛ وما زالت التفرقة بين الجنس الآرى والجنس السامى (وبخاصة اليهود) عماد الفكرة الجنسية ؛ ولكن تحدث أخيراً بعض غلاة الوطنيين الاشتراكيين (الهتلريين) فقال إن الطب الحديث هو من عوامل فساد الدم ، ويجب أن يحذر الجنس الآرى والجنس الجرمانى بنوع خاص تجارب الطب الحديث لأنه يهودى المنشأ والصبغة ؛ وقد تفنن أقطاب الأطباء والباحثين اليهود فى اختراع نظريات الميكروبات وغيرها وأفسدوا بذلك نظام الطب الطبيعى الذى يجب أن يكون شعار الجرمانية إلى غير ذلك من الأقوال المغرقة التى تدل على غلوّ لا فى التعصب فقط ولكن فى تشويه العلم والحقيقة أيضاً . وثمة صيحة غريبة أخرى يلقيها غلاة الهتلريين ، فهم يحذرون الألمان من أكل البقول والمنتجات الأجنبية ، لأنه لا يصح أن يتكون الدم الألمانى النقى إلا بالأغذية والبقول التى تنتجها الأرض الألمانية . وضربت جريدة « الفرانكيشه تسيتونج » مثلاً لذلك بالليمون الذى ارتفعت أسعاره أخيراً فى ألمانيا ، فقالت يجب على الألمان أن يصرفوا النظر عن الليمون الأجنبى لأنه يفسد دماءهم ، وأن يستعيضوا عنه ببقل ألمانى آخر يسمى « الرها بارب » وهو بقل حامض يزرع بكثرة فى ألمانيا ويمكن استخراج حامضه واستعماله مكان الليمون ؛ وهكذا يخلط القوم خلطاً غريباً فى نظريات الدم والسلالة والقومية وغيرها من حميات التعصب المغرق التى تجرف ألمانيا الهتلرية

الرقص العارى ليس فنا

هل يعتبر الرقص العارى منافياً للحياء ؟ لقد انتشر الرقص العارى أخيراً فى فرنسا وأصبحت عدة من ملاهيها الشهيرة تخصص للرقص العارى فى برنامجها أهم مكان . والمقصود بالرقص العارى هو العراء المطلق ، ويقوم به راقصات حسان يرقصن أمام الجمهور عاريات تماماً ، ولم يكن البوليس يتدخل فى أمر هذا الرقص لاعتباره داخلاً فى باب الفن ، ولكن القضاء تدخل أخيراً بناء على شكوى قدمت اليه من أحد النظارة ، فقد اصطحب رجل زوجه وابنته إلى أحد الملاهى الشهيرة ، وبعد حين غادرت ابنته المكان لسبب ما ، ولم يمض على خروجها برهة حتى ظهرت الراقصة الشهيرة جوان وارنر عارية تماماً وأدت رقصتها ، وهتف لها الجمهور طويلاً . ولكن السيد المشار اليه ذهب تواً إلى إدارة البوليس وقدم شكواه ضد هذا المنظر المنافى للحياء والذى ينطوى على فسق بين . ورفع الأمر الى القضاء ، فقدمت الراقصة وصاحب الملهى متهمين بارتكاب عمل ينافى الحياء ، وأخذت المحكمة بهذا الرأى ، وقضت على الراقصة بغرامة قدرها خمسون فرنكاً ، وعلى صاحب الملهى بمائة فرنك ، وذلك برغم ما دفعت به الممثلة من أن رقصها العارى إنما هو رقص محتشم يدخل فى باب الفن ، وبرغم مادفع به صاحب الملهى من أن برنامج الليلة كان مذكوراً فيه هذا المنظر ، وقد كان على المشتكى أن يمتنع من الدخول

الكتب

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

للمقريزى

نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

للأستاذ محمد بك كرد على

المقريزى مؤرخ القرن التاسع غير مدافع (٨٤٥ هـ)، استفاضت شهرته بتآليفه فى حياته وبعد مماته، وقد طبع له حتى الآن «كتاب التنازع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم» و«الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام» و«البيان والاعراب عما فى أرض مصر من الاعراب» و «الأوزان والمكاييل الشرعية» و «الطرفة الغريبة فى أخبار حضرموت العجيبة». وأهم كتبه الذى حفظ به تاريخ عمران مصر كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» الذى يدعى تسهيلاً «الخطط» طبع غير مرة وعنى به علماء المشرقيات عناية خاصة ومنهم من اقتطع منه فصولاً نقلها إلى إحدى اللغات الأفرنجية، ومنهم من درسه فى الجامعات وعلق عليه.

ومن كتب المقريزى التى بقيت محفوظة فى بعض دور الكتب العامة، واكتفى علماء المشرقيات بنقل ما يتعلق بغرضهم منها «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك» وقد وفق الأستاذ محمد مصطفى زيادة المدرس بقسم التاريخ فى كلية الآداب بالجامعة المصرية باخراج هذا السفر الجليل على طريقة علماء المشرقيات فى إحياء تراثنا الأدبى، معارضاً له على عدة نسخ مخطوطة وأهمها نسخة بخط المؤلف. وتجد فى كل صفحة أثر العناية البالغة فى هذا الجزء الأول — القسم الأول ٢٦١ صفحة من القطع الأخير

«كتب المقريزى — كما جاء فى تصدير الناشر — كتابه على نظام الحوليات الشائع فى مؤلفات المؤرخين الشرقيين فى القرون الوسطى فسرد تاريخ كل سنة على حدته، ولم يحاول أن يصل بين سنة وأخرى أبداً، ولم يستوقف القارىء فى وسط السنين إلا عند حدوث عهد جديد» وقال المقريزى إنه لما أكمل كتاب «عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط» و «كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء» وهما يشتملان على ذكر من ملك مصر من الأمراء والخلفاء منذ فتحت وإلى أن زالت الدولة الفاطمية. أحب أن يصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية والسلاطين المماليك التركية والجركسية غير معتن فيه بالتراجم والوفيات لأنه أفرد لها تأليفاً آخر

وفى هذا الكتاب كما فى أكثر ما خطته يد المقريزى يسقط الباحث على شذرات فى التاريخ وآراء سديدة فى نقد الحوادث ماعرف عنه مثله فى سائر كتبه المنقحة، فقد قال فى دولة بني العباس وهو ما سبق له التصريح بمثله فى كتابه النزاع والتخاصم: «وفيها افترقت كلمة الاسلام وسقط اسم العرب من الديوان، وأدخل الأتراك فى الديوان، واستولت الديلم ثم الأتراك، وصار لهم دول عظيمة جداً، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر» وقال فى المنصور إنه أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد على بن أبى طالب وكان قبل ذلك أمرهم واحداً، وهو أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وأول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات، وأول خليفة استعمل مواليه وغلمانه فى أعماله وقدمهم على العرب، فاقتدى به من بعده من الخلفاء، حتى سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها، وكان قد نظر فى العلم فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت علومهم

ومما دونه من حوادث سنة ٥٩٤ أن معز الدين اسماعيل ابن سيف الاسلام طغتكين ملك اليمن ادعى الالوهية نصف نهار وكتب كتاباً وأرخه من مقر الالوهية ثم رجع عن ذلك، وادعى الخلافة، وزعم أنه من بنى أمية ودعا لنفسه فى سائر مملكته بالخلافة، وقطع الدعاء من الخطبة لبنى العباس ولبس ثياباً خضراً وعمائم خضراً مذهبة، وأكره من كان فى مملكته من أهل

الذمة على الاسلام ... وفى حوادث سنة ٦٠٧ أن الملك الأوحد ابن العادل ظفر بملك الكرج ففدى هذا نفسه منه بمائة ألف دينار وخمسة آلاف أسير من المسلمين، وأنه يلتزم الصلح ثلاثين سنة وأن يزوجه ابنته بشرط ألا تفارق دينها. وفى حوادث ٦٠٩ أنه كان فى جهاز ضيفة خاتون ابنة العادل مائة مغنية يلعبن بأنواع الملهى، ومائة جارية يعملن أنواع الصنائع البديعة. وفى حوادث ٦٢٦ أنه وقعت الحوطة على دار القاضى الأشرف أحمد بن القاضى الفاضل، وحملت خزائن الكتب جميعها إلى قلعة الجبل بمصر، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلدة، وحمل من داره خشب خزائن الكتب مفصلة وحملها تسعة وأربعون جملاً، وان عدة الكتب ١١٨٠٨ كتب، ومن جملة الكتب المأخوذة كتاب الأيك والغصون لأبى العلاء المعرى فى ستين مجلداً

وقال فى الموفق العباسى إنه أول خليفة قُهر وحجر عليه ووكل به. وروى قول ابن مقلة: « انى أزلت دولة بنى العباس وأسلمتها إلى الديلم لأنى كاتبت الديلم وقت انفاذى إلى أصبهان وأطمعتهم فى سرير الملك ببغداد فان اجتنيت ثمرة ذلك فى حياتى وإلا فهى تجتنى بعد موتى. » وذكر أنه قلت الجباية فى عهد العزيز من الأيوبيين بمصر فاتفقوا فى دار السلطان على ما يصرف إلى عياله وما يقتات به أولاده، وأفضى الأمر إلى أن يؤخذ من الأسواق ما لا يوزن له ثمن وما يغصب من أربابه، وأفضى هذا إلى غلاء أسعار المأكولات، فان المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون فى الأسعار العامة بقدر مايؤخذ منهم للسلطان، فاقتضى ذلك النظر فى المكاسب الخبيثة وضمن باب المزر باثنى عشر ألف دينار، وفسح فى اظهاره وبيعه فى القاعات والحوانيت، ولم يقدر أحد على انكار ذلك، وصار مايؤخذ من هذا السحت ينفق فى طعام السلطان وما يحتاج إليه، وصار مال الثغور والجوالى إلى من لا يبالى من أين أخذ المال . . . العزيز هو الذى منع من استخدام أهل الذمة فى شىء من الخدم السلطانية، والزموا لبس الغيار فى عهده، وأعاد المكوس التى كان أبطلها أبوه صلاح الدين وزاد فى شناعتها، وتجاهر بالمعاصى والمنكرات، وأباح أرباب الأمر والنهى الخمر والحشيش، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة، واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى والفسوق، وكثر اجتماع النساء والرجال على الخليج لما فتح، وعلى ساحل مصر، وتلوث النيل بمعاص قبيحة « وعدمت الأرزاق من جانب الديوان، وتعذرت وجوه المال حتى عم المرتزقة الحرمان، واستبيح ما كان محظوراً من فتح أبواب التأويلات، وأخذ ما بأيدى الناس بالمصادرات » ومع هذا قال المقريزى فى هذا الملك لما مات: إنه كان ملكا كريماً عادلاً رحيما، حسن الأخلاق، شجاعاً، سريع الانقياد، مفرط السخاء، سمع الحديث من السلفى وابن عوف وابن برى، وحدث، وكانت الرعية تحبه محبة كثيرة، وكان يعطى العشرة آلاف دينار، ويعمل سماطاً عظيما يجمع الناس لأكله، فاذا جلسوا للأكل كره منهم أكله، ولا يطيب له ذلك، وهذا من غرائب الأخلاق اهـ

ووصف فى حوادث سنة سبع وتسعين وخمسمائة الغلاء الذى حدث فى مصر حتى أكل الناس الميتات وأكل بعضهم بعضاً وتبع ذلك فناءٌ عظيم، وتمادى الحال ثلاث سنين متوالية لا يمدُّ النيل فيها إلا مداً يسيراً، وشنع الموت فى الأغنياء والفقراء فبلغ من كفنه العادل من الأموات فى مدة يسيرة نحواً من مائتى ألف إنسان وعشرين ألف إنسان، وأكلت الكلاب بأسرها، وأكل من الأطفال خلق كثير، وصار الناس يحتال بعضهم على بعض ويؤخذ من قُدر عليه فيؤكل، وإذا غلب القوى ضعيفاً ذبحه وأكله، وفقد كثير من الأطباء لكثرة من كان يستدعيهم إلى المرضى فاذا صار الطبيب إلى دار المريض ذُبح وأكل. وهذا الوباء والغلاء يشبهان ما وقع من مثلهما فى أواخر عهد الفاطميين فى مصر والشام

ويطول بنا المقال إذا أردنا الاستكثار من الاقتباس من كتاب الملوك، وقد استفدنا منه أنهم كانوا يطلقون على النبيلات من ربات الحجال « الستر العالى الصاحبة فاطمة »، « الستر العالى الصاحبة غازية خاتون »، « الستر الرفيع فلانة » كما نقول اليوم « صاحبة العصمة »، وكنت قرأت على حائط فناء مدرسة الفردوس بحلب: « هذا ما أمرت بانشائه ذات الستر الرفيع والجناب المنيع الملكة الرحيمة عصمة الدنيا والدين، ضيفة خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب... »

محمد كرد على